

# شروط التَّوْبَةِ

إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

كَتَبَهُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى  
أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ زَيْدٍ الْجُبُرِيُّ الرَّعْكِيُّ  
كَانَ اللَّهُ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
 وَعَمَّا لَكَ الْإِتِّكُنْ فَعَلِمَ  
 وَكَأَن فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا

كنوز الإسلام  
 للنشر والتوزيع



البيمن - صنعاء - هاتف: ٩٧٧٧٧١١٤٢٥  
 البريد الإلكتروني: a.aljahdri@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الثانية

١٤٣٨ هـ

محفوظة  
 جميع الحقوق

شروط التوثيق  
 إلى الله تعالى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين مالك يوم الدين التواب الرحيم والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبي التوبة وقائد الغر المحجلين وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين وأشهد أن محمد عبده ورسوله الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيقول الله في كتابه المبين ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيَّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣١) [النور]، ويقول رسول الله ﷺ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» (١)، ويقول ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، وَاسْتَغْفِرُوهُ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، وَاسْتَغْفِرُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ» (٢).

وكان يعد له في المجلس الواحد «رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (٣)

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٢٩٤)، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود (١٥١٦) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث في «الصحیح المسند» (٣٦٣/١) لشيخنا مفضل الوادعي.

أكثر من مائة مرة ، إلى غير ذلك من الأدلة الحاثّة على ملازمة التوبة وأنه لا يستغنى عنها العبد طرفة عين، وإن لم تلازمه كان من أهل الغبن والحين .

كيف رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يقول: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةً مَرَّةً»<sup>(٤)</sup> مع كثرة ذكره لله ﷻ وملازمته لطاعته، لكنه قد يشغل بتجهيز الجيوش وقضاء حوائج المسلمين فتحصل منه التوبة على ذلك .

فما بالك بمن رتع في المعاصي والبدع والشركيات فلهو أحوج إلى التوبة أشد من حاجته إلى الطعام والشراب قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَدْ فِيهِ مُهًانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان].

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .



**ويا لله كم للتوبة من فوائد جمّة: أجلها محبة الله ﷻ للعبد**

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢) ﴿البقرة﴾.

ومنها تكفير السيئات وتبديلها بالحسنات كما في الآية السابقة ولحديث: «أَمَا عَلِمْتُ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحُجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟» (٥).

وقبولها من الله ﷻ يدل على الاجتناء قال تعالى عن آدم عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ، فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (١٢٢) ﴿طه﴾.

وأخرج مسلم في «صحيحه» (١٦٩٦) من حديث أبي نعيم عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﷺ في شأن المرأة التي زنت ثم أمر بها النبي ﷺ فرجمت وقال: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدَتْ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟».

ولشرفها يفرح الله ﷻ لتوبة عبده كما قال ﷻ: «وَاللَّهِ لَئِنْ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ» (٦)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ

(٥) أخرجه مسلم (١٢١)، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه مسلم (٢٦٧٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» (٧).

وقد أنجى الله ﷻ قوم يونس من العذاب لما تابوا وأنابوا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الحجرات].

ومن محبة الله ﷻ للتوبة أنه: «يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيُتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيُتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ



مِنْ مَغْرِبِهَا»<sup>(٨)</sup>، ومن محبة لها **عَلَيْكَ** أنه «يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ» كما في حديث أنس في «الصحيحين»<sup>(٩)</sup>.

**وأنها معروضة لا يغلق بابها حتى تطلع الشمس من مغربها** كما صح بذلك الحديث، وهي سبب للفلاح كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **﴿٣١﴾** [النور].

ومع ذلك فإن كثيرا من العباد يذنبون ويعصون ويخالفون الكتاب والسنة هوى وشبهة وشهوة ولا يراعون ولا ينزجرون وقد قال رسول الله **ﷺ**: «وَيْلٌ لِأَفْئَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصْرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»<sup>(١٠)</sup> فالإصرار على الذنوب والمعاصي نذير شر للأفراد والمجتمعات وترك التوبة علامة على ظلم صاحبها قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ **﴿١١﴾** [الحجرات].

قال ابن القيم **رحمته الله** في «مدارج السالكين» (١/١٩٦): قَسَمَ الْعِبَادَ إِلَى تَائِبٍ وَظَالِمٍ، وَمَا تَمَّ قَسْمُ ثَالِثِ الْبَتَّةِ، وَأَوْقَعَ اسْمَ الظَّالِمِ

(٨) أخرجه مسلم (٢٧٥٩)، عَنْ أَبِي مُوسَى **رضي الله عنه**.

(٩) أخرجه البخاري (٦٤٣٩) ومسلم (١٠٤٨).

(١٠) أخرجه أحمد (٦٥٤)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ **رضي الله عنه**.

عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ، وَلَا أَظْلَمَ مِنْهُ، لَجْهْلِهِ بِرَبِّهِ وَبِحَقِّهِ، وَبِعَيْبِ نَفْسِهِ  
وَأَفَاتِ أَعْمَالِهِ اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ  
ظَالِمَةٌ ۖ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢) [هود] وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ  
اللَّهَ كَيْمَلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» (١١) فالتوبة التوبة يا عبا الله  
قبل الحيلولة بين العبد وبينها.

فبعض الناس ربما خيل إليه أنه قد تاب مع أن توبته مدخولة  
لم تتحقق شروطها وأركانها لأن التوبة ثلاثة أنواع: التوبة النصوح  
وهي: توثيق القلب أن لا يعود لمثله.

**والتوبة الصحيحة هي:** التي إذا اقترف العبد ذنباً تاب عنه  
بصدق في الحال.

**والتوبة الفاسدة هي:** التوبة باللسان مع بقاء لذة المعصية في  
الخاطر، فأحببت أن أكتب هذه الوريقات حتى يعرف أصناف  
العصاة والمتمردين على شرع الله الحكيم ما يجب عليهم ليتجاوز





الله عن سيئاتهم ويبدلها حسنات وتناهم المحبة والتجاوز عن الزلات. وأسميتها "شروط التوبة إلى الله تعالى".

### وكان السبب الداعي إلى كتابة هذه الوريقات :

هو ما نلاحظه ونسمعه من إدعاء كثير من أهل البدع التوبة مع عدم توفر الشروط عليهم مع أنهم في غيهم يهرعون ويمرحون وللسنة وأهلها معادون ولأهل الباطل ناصرون وعن الحق مراوغون ومعرضون فالله اسأل أن يجعلها خالصة ونافعة في الحيا وبعد الممات ورحم الله القائل :

اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا يَعْلَمُ اللَّهُ إِنَّ الشَّقِيَّ لَمَنْ لَا يَرْحَمُ اللَّهُ  
مَا أَحْلَمَ اللَّهُ عَمَّنْ لَا يُرَاقِبُهُ كُلُّ مُسِيٍّ وَلَكِنْ يَحْلُمُ اللَّهُ  
فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ مِمَّا كَانَ مِنْ ذَلِكَ طُوبَى لِمَنْ كَفَّ عَمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ  
طُوبَى لِمَنْ حَسُنَتْ سِرِيرَتُهُ طُوبَى لِمَنْ يَنْتَهَى عَمَّا نَهَى اللَّهُ  
والحمد لله رب العالمين

### كتبه

أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ الْحَمِيدِيُّ بِمَعْنَى بْنِ زَيْدٍ الْجَعْفَرِيُّ الرَّفْعَرِيُّ

دار الحديث دماج - اليمن - صعدة السادس من شهر شوال ١٤٢٨ هـ

## ضرر الذنوب والمعاصي في الدنيا والآخرة

يقول تعالى ذكره: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) [الروم].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠) [الشورى].

ويقول تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت].

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (٤٣) ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ مُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أُولَئِكَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ (٤٤) ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْتُ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ (٤٥) ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ



كَانَ مَكْرَهُمْ لِيَنْزِلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ ۚ رُسُلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴿إبراهيم﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿١٤﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنَ قَرْيَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ۖ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نَكِرًا﴾ ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا﴾ ﴿٩﴾ [الطلاق].

قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» (١٥٥/٨): يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، وَكَذَّبَ رُسُلَهُ، وَسَلَكَ غَيْرَ مَا شَرَعَهُ، وَمُخْبِرًا عَمَّا حَلَّ بِالْأُمَّمِ السَّالِفَةِ بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَكَايْنٍ مِنَ قَرْيَةٍ عَنَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ ﴿٩﴾ أَي: تَمَرَّدَتْ وَطَغَتْ وَاسْتَكْبَرَتْ عَنِ

اتَّبَاعِ أَمْرِ اللَّهِ وَتَتَابَعَةِ رُسُلِهِ، ﴿فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذِّبْنَهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ أَي: مُنْكَرًا فَظِيعًا.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أَي: غَبَّ مُخَالَفَتِهَا، وَنَدِمُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ. اهـ

فمما تقدم، ومن غيره، يظهر جلياً خطر المعاصي على الأمم، والشعوب، والبلدان، فما دمر الله قوم نوح، وأغرقهم إلا بسببها، وما أهلك قوم عاد إلا بسببها، وكذا قوم ثمود، وقوم لوط، وبنو إسرائيل، ومن أراد المزيد من ذلك، ما عليه إلا أن يتدبر سورة هود، والأعراف، والشعراء، وغيرها من السور، وقصة قوم سبأ في سورة سبأ، تدل على عظم كفران النعم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ].

في آيات كثيرات يبين تعالى ذكره حال أهل المعصية وأعظمها الكفر بالله تعالى في الدنيا والآخرة.



قال ابن القيم **رحمته الله** في «الداء والدواء» (٥٢): وَلِلْمَعَاصِي مِنَ الْأَثَارِ الْقَبِيحَةِ الْمَذْمُومَةِ، الْمُضِرَّةِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ:

- **فَمِنْهَا: حَرَمَانُ الْعِلْمِ**، فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ، وَالْمَعْصِيَةُ تُطْفِئُ ذَلِكَ النُّورَ. وَلَمَّا جَلَسَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ يَدَيِ مَالِكٍ وَقَرَأَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْ وَفُورِ فِطْنَتِهِ، وَتَوَقَّدَ ذَكَائِهِ، وَكَمَالَ فَهْمِهِ، فَقَالَ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا تُطْفِئُهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ **رحمته الله**:

شَكَوْتُ إِلَى وَكَيْعٍ سُوءَ حِفْظِي فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي  
وَقَالَ اْعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ فَضْلٌ وَفَضْلُ اللَّهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِي

- **وَمِنْهَا: حَرَمَانُ الرِّزْقِ**، وَفِي الْمُسْنَدِ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحَرِّمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ» وَقَدْ تَقَدَّمَ، وَكَمَا أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ مَجْلَبَةٌ لِلرِّزْقِ فَتَرُكُ التَّقْوَى مَجْلَبَةٌ لِلْفَقْرِ، فَمَا اسْتَجْلَبَ رِزْقُ اللَّهِ بِمِثْلِ تَرْكِ الْمَعَاصِي.

- **وَمِنْهَا: وَحْشَةُ يَجِدُهَا الْعَاصِي فِي قَلْبِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ لَا تُوَارِنُهَا وَلَا تُقَارِنُهَا لِدَّةً أَصْلًا**، وَلَوْ اجْتَمَعَتْ لَهُ لَذَاتُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَمْ تَفِ

يَتِلَّكَ الْوَحْشَةَ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَحْسُ بِهِ إِلَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ حَيَاةٌ، وَمَا  
لَجُرْحِ بِمَيِّتٍ إِيْلَامٌ، فَلَوْ لَمْ تُتْرَكِ الذُّنُوبُ إِلَّا حَدَرًا مِنْ وَقُوعِ تِلْكَ  
الْوَحْشَةِ، لَكَانَ الْعَاقِلُ حَرِيًّا بِتَرْكِهَا.

وَشَكََا رَجُلٌ إِلَى بَعْضِ الْعَارِفِينَ وَحْشَةً يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ فَقَالَ  
لَهُ: إِذَا كُنْتَ قَدْ أَوْحَشْتَكَ الذُّنُوبُ... فَدَعَهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ  
وَلَيْسَ عَلَى الْقَلْبِ أَمْرٌ مِنْ وَحْشَةِ الذَّنْبِ عَلَى الذَّنْبِ، فَاللَّهُ  
الْمُسْتَعَانُ.

- وَمِنْهَا: الْوَحْشَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَلَا سِيَّمَا  
أَهْلَ الْخَيْرِ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ يَجِدُ وَحْشَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَكُلَّمَا قَوِيَتْ تِلْكَ  
الْوَحْشَةُ بَعْدَ مِنْهُمْ وَمِنْ مُجَالَسَتِهِمْ، وَحُرِمَ بَرَكَةَ الْإِنْتِفَاعِ بِهِمْ،  
وَقَرَّبَ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ، بِقَدْرِ مَا بَعْدَ مِنْ حِزْبِ الرَّحْمَنِ،  
وَتَقَوَّى هَذِهِ الْوَحْشَةُ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ، فَتَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ وَوَلَدِهِ  
وَأَقَارِبِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، فَتَرَاهُ مُسْتَوْحِشًا مِنْ نَفْسِهِ.

- وَمِنْهَا: تَعْسِيرُ أُمُورِهِ عَلَيْهِ، فَلَا يَتَوَجَّهُ لِأَمْرِ إِلَّا يَجِدُهُ مُغْلَقًا  
دُونَهُ أَوْ مُتَعَسِّرًا عَلَيْهِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ مَنْ تَلَقَّى اللَّهَ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ  
يُسْرًا، فَمَنْ عَطَلَ التَّقْوَى جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا، وَيَا لِلَّهِ الْعَجَبُ!



كَيْفَ يَجِدُ الْعَبْدُ أَبْوَابَ الْخَيْرِ وَالْمَصَالِحِ مَسْدُودَةً عَنْهُ وَطُرُقَهَا مُعَسَّرَةً عَلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أُتِيَ ؟

- وَمِنْهَا: ظُلْمَةٌ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ حَقِيقَةٌ يَحْسُ بِهَا كَمَا يَحْسُ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ إِذَا ادْلَهَمَ، فَتَصِيرُ ظُلْمَةُ الْمُعْصِيَةِ لِقَلْبِهِ كَالظُّلْمَةِ الْحَسِّيَّةِ لِبَصَرِهِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ نُورٌ، وَالْمُعْصِيَةَ ظُلْمَةٌ، وَكُلَّمَا قَوِيَتْ الظُّلْمَةُ أَزْدَادَتْ حَيْرَتُهُ، حَتَّى يَقَعَ فِي الْبَدَعِ وَالضَّلَالَاتِ وَالْأُمُورِ الْمُهْلِكَةِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، كَأَعْمَى أُخْرِجَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَمْشِي وَحْدَهُ، وَتَقْوَى هَذِهِ الظُّلْمَةُ حَتَّى تَظْهَرَ فِي الْعَيْنِ، ثُمَّ تَقْوَى حَتَّى تَعْلُوَ الْوَجْهَ، وَتَصِيرُ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ حَتَّى يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ.

- وَمِنْهَا أَنَّ الْمَعَاصِيَ تُوْهِنُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ، أَمَّا وَهْنُهَا لِلْقَلْبِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ، بَلْ لَا تَزَالُ تُوْهِنُهُ حَتَّى تُزِيلَ حَيَاتَهُ بِالْكُلِّيَّةِ.

وَأَمَّا وَهْنُهَا لِلْبَدَنِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ قُوَّتُهُ مِنْ قَلْبِهِ، وَكُلَّمَا قَوِيَ قَلْبُهُ قَوِيَ بَدَنُهُ، وَأَمَّا الْفَاجِرُ فَإِنَّهُ - وَإِنْ كَانَ قَوِيَ الْبَدَنَ - فَهُوَ أَوْعَفُ شَيْءٍ عِنْدَ الْحَاجَةِ، فَتُخَوِّنُهُ قُوَّتُهُ عِنْدَ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَى نَفْسِهِ فَتَأْمَلُ قُوَّةَ أَبْدَانِ فَارِسَ وَالرُّومِ، كَيْفَ خَانَتْهُمْ، أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا، وَقَهَرَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِقُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ؟

- وَمِنْهَا: حَرَمَانُ الطَّاعَةِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلذَّنْبِ عُقُوبَةٌ إِلَّا أَنْ يَصُدَّ عَنْ طَاعَةٍ تَكُونُ بَدَلَهُ، وَيَقْطَعَ طَرِيقَ طَاعَةٍ أُخْرَى، فَيَنْقَطِعَ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَرِيقُ ثَالِثَةٍ، ثُمَّ رَابِعَةٍ، وَهَلُمَّ جَرًّا، فَيَنْقَطِعَ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَهَذَا كَرَجُلٍ أَكَلَ أَكْلَةً أَوْ جَبَتْ لَهُ مَرَضَةٌ طَوِيلَةٌ مَنَعَتْهُ مِنْ عِدَّةٍ أَكَلَاتٍ أَطْيَبَ مِنْهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

- وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعَاصِيَ تُقْصِرُ الْعُمُرَ وَتَمَحِقُ بَرَكَتَهُ وَلَا بُدَّ، فَإِنَّ الْبِرَّ كَمَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ، فَالْفُجُورُ يُقْصِرُ الْعُمُرَ. انتهى.

إلى غير ذلك بما لو سطره كاتب لطلال البيان والتفصيل، وقد تقدّر أن كل فساد ظاهر وباطن فسببه الذنوب والمعاصي أسأل الله تعالى العافية ولهذا كان في دعاء النبي ﷺ عند افتتاح الصلاة الاستعاذة منها ففي مسلم (٥٩٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ، سَكَتَ هُنِيئَةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَيِّ أُنْتُ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سَكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ





كَمَا يُنْقَى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ  
بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرْدِ». وبالله التوفيق.

### تعريف التوبة إلى الله ﷻ

قال الزبيدي في «لسان العرب» (٢٣٣): التَّوْبَةُ: الرَّجُوعُ مِنَ  
الدَّنْبِ. اهـ

وقال الفيروز أبادي رحمه الله في «بصائر ذوي التمييز»  
(٣٠٤/٢): تاب إلى الله تَوْبًا، وتوبة، وَمَتَابًا، وتَابَةً، وتَوْبَةً: رَجَعَ  
عن المعصية، وهو تائب، وتَوَّاب. وتاب الله عليه: وَفَّقَهُ للتوبة. اهـ  
قال القرطبي رحمه الله في «المفهم» (٦٩/٧) وقد اختلفت  
عبارات العلماء والمشايع فيها: فقائل يقول: إنها الندم، وآخر  
يقول: إنها العزم على عدم العود، والآخر يقول: إنها الإقلاع عن  
الذنب، ورابع يجمع بين تلك الأمور الثلاثة فيقول: إنها الندم على  
ذنب وقع والإقلاع عنه في الحال والعزم على أن لا يعود.. وهذا هو  
الأكمل. اهـ بتصرف.

وقال الراغب رحمه الله في «مفردات القرآن» (١٦٩): التَّوْبُ:  
ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإنَّ

الاعتذار على ثلاثة أوجه: إمّا أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأساءت وقد أفلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة.

والتَّوْبَةُ فِي الشَّرْع: ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة. اهـ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «المدارج» (١/٣١٣): التَّوْبَةُ هِيَ: الرُّجُوعُ مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا إِلَى مَا يُحِبُّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَيَدْخُلُ فِي مُسَمَّاهَا الْإِسْلَامُ، وَالْإِيمَانُ، وَالْإِحْسَانُ، وَتَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْمَقَامَاتِ. اهـ



## حقيقة التَّوْبَةِ

قال ابن مفلح **رحمه الله** في «الآداب الشرعية» (١/٨٤): فَضِّلْ فِي حَقِيقَةِ التَّوْبَةِ وَشُرُوطِهَا: وَالتَّوْبَةُ هِيَ: النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى مِنَ الْمُعَاصِي وَالذُّنُوبِ، وَالْعَزْمُ عَلَى تَرْكِهَا دَائِمًا لِلَّهِ **عَزَّ وَجَلَّ** لَا لِأَجْلِ نَفْعِ الدُّنْيَا أَوْ آذَى، وَأَنْ لَا تَكُونَ عَنْ إِكْرَاهٍ أَوْ إِجْبَاءٍ، بَلْ اخْتِيَارًا حَالَ التَّكْلِيفِ. اهـ

ثم ذكر أيضا قول بعضهم باعتبار التلفظ بها والاستغفار وهذا الشرط والله أعلم معتبر لحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الترمذي (٣٥٤٠) وفيه: «يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أَبَالِي»

قال ابن مفلح رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الآداب الشرعية» (١/٨٤): عَلَّقَ الْغُفْرَانُ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ دَلَّ عَلَى اعْتِبَارِهِ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ اسْتَغْفَرَ مِنْ ذُنُوبِهِ تَوْبَةً وَإِلَّا فَلَا اسْتِغْفَارَ بِلَا تَوْبَةٍ لَا يُوجِبُ الْغُفْرَانَ... وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء]. انتهى باختصار

## فضل التوبة إلى الله ﷻ

قال الفيروز أبادي رحمته الله في «بصائر ذوي التمييز» (٣٠٤/٢):  
والتوبة من أفضل مقامات السالكين؛ لأنها أول المنازل،  
وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقها العبد أبداً، ولا يزال فيها إلى  
المات. اهـ

وقال ابن القيم رحمته الله في «المدارج» (٣١٢/١-٣١٤): وَكَثِيرٌ  
مِنَ النَّاسِ إِنَّمَا يُفَسِّرُ التَّوْبَةَ بِالْعَزْمِ عَلَى أَنْ لَا يُعَاوِدَ الذَّنْبَ،  
وَبِالْإِقْلَاعِ عَنْهُ فِي الْحَالِ، وَبِالنَّدَمِ عَلَيْهِ فِي الْمَاضِي، وَإِنْ كَانَ فِي حَقِّ  
أَدَمِيٍّ فَلَا بُدَّ مِنْ أَمْرِ رَابِعٍ، وَهُوَ التَّحَلُّلُ مِنْهُ.

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرُوهُ بَعْضُ مُسَمِّي التَّوْبَةِ بَلْ شَرَطُهَا، وَإِلَّا  
فَالَتَّوْبَةُ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ - كَمَا تَتَضَمَّنُ ذَلِكَ - تَتَضَمَّنُ الْعَزْمَ  
عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ وَالْتِزَامِهِ فَلَا يَكُونُ بِمَجَرَّدِ الْإِقْلَاعِ وَالْعَزْمِ  
وَالنَّدَمِ تَائِبًا، حَتَّى يُوجَدَ مِنْهُ الْعَزْمُ الْجَازِمُ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ،  
وَالِإِتْيَانِ بِهِ، هَذَا حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ، وَهِيَ اسْمٌ لِمَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ، لِكِنَّهَا  
إِذَا قُرِنَتْ بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ كَانَتْ عِبَارَةً عَمَّا ذَكَرُوهُ، فَإِذَا أُفْرِدَتْ  
تَضَمَّنَتْ الْأَمْرَيْنِ، وَهِيَ كَلْفِظَةُ التَّقْوَى الَّتِي تَقْتَضِي عِنْدَ إِفْرَادِهَا



فِعْلٌ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَتَقْتَضِي عِنْدَ اقْتِرَانِهَا بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ الْإِنْتِهَاءَ عَنِ الْمَحْظُورِ.

فَإِنَّ حَقِيقَةَ التَّوْبَةِ الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ بِالتَّزَامِ فِعْلٍ مَا يُحِبُّ، وَتَرَكَ مَا يَكْرَهُ، فَهِيَ رُجُوعٌ مِنْ مَكْرُوهٍ إِلَى مُحَبُّوبٍ، فَالرَّجُوعُ إِلَى الْمُحَبُّوبِ جُزْءٌ مُسَمَّاهَا، وَالرَّجُوعُ عَنِ الْمَكْرُوهِ الْجُزْءُ الْآخَرُ، وَلِهَذَا عَلَّقَ سُبْحَانَهُ الْفَلَاحَ الْمُطْلَقَ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرَكَ الْمَحْظُورَ بِهَا، فَقَالَ ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور) ﴿٢١﴾ فَكُلُّ تَائِبٍ مُفْلِحٌ، وَلَا يَكُونُ مُفْلِحًا إِلَّا مَنْ فَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات) ﴿١١﴾ وَتَارِكُ الْمَأْمُورِ ظَالِمٌ، كَمَا أَنَّ فَاعِلَ الْمَحْظُورِ ظَالِمٌ، وَزَوَالَ اسْمِ الظُّلْمِ عَنْهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالتَّوْبَةِ الْجَامِعَةِ لِلْأَمْرَيْنِ، فَالنَّاسُ قِسْمَانِ: تَائِبٌ وَظَالِمٌ لَيْسَ إِلَّا، فَالتَّائِبُونَ هُمْ: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُخْلِصُونَ الْمُسْتَخِيرُونَ الْمُرْسَلُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْمُسْتَغْفِرُونَ وَالْكَاسِبُونَ الْمُقْبِلُونَ وَالْمُنْكَرُونَ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ (التوبة) [فَحِظْ حُدُودَ اللَّهِ جُزْءُ التَّوْبَةِ، وَالتَّوْبَةُ هِيَ جَمْعُ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ تَائِبًا لِرُجُوعِهِ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ مِنْ نَهْيِهِ، وَإِلَى طَاعَتِهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

فَإِذَا التَّوْبَةُ هِيَ حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالَّذِينَ كُلُّهُمْ دَاخِلٌ فِي مُسَمَّى التَّوْبَةِ وَهَذَا اسْتَحَقَّ التَّائِبُ أَنْ يَكُونَ حَبِيبَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ، وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ.

فَإِذَا التَّوْبَةُ هِيَ الرَّجُوعُ مِمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا إِلَى مَا يُحِبُّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَيَدْخُلُ فِي مُسَمَّاهَا الْإِسْلَامُ، وَالْإِيمَانُ، وَالْإِحْسَانُ، وَتَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْمَقَامَاتِ، وَهَذَا كَانَتْ غَايَةُ كُلِّ مُؤْمِنٍ، وَبَدَايَةُ الْأَمْرِ وَخَاتِمَتُهُ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي وُجِدَ لِأَجْلِهَا الْخَلْقُ، وَالْأَمْرُ وَالتَّوْحِيدُ جُزْءٌ مِنْهَا، بَلْ هُوَ جُزْؤُهَا الْأَعْظَمُ الَّذِي عَلَيْهِ بِنَاؤُهَا.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْرِفُونَ قَدَرَ التَّوْبَةِ وَلَا حَقِيقَتَهَا، فَضَلًّا عَنِ الْقِيَامِ بِهَا عِلْمًا وَعَمَلًا وَلَوْ لَا أَنَّ التَّوْبَةَ اسْمُ جَامِعٍ لِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَحَقَائِقِ الْإِيمَانِ لَمْ يَكُنِ الرَّبُّ تَعَالَى يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ذَلِكَ الْفَرَحُ الْعَظِيمُ، فَجَمِيعُ مَا يَتَكَلَّمُ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ هُوَ تَفَاصِيلُ التَّوْبَةِ وَأَثَارُهَا. اهـ

وقد تقدمت أدلة فضلها في المقدمة فلا داعي للتكرار.



## حكم التوبة إلى الله ﷻ

التوبة واجبة على المكلفين لقول الله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣١) [النور] قال الفيروز أبادي رَحِمَهُ اللَّهُ في «بصائر ذوي التمييز» (٣٠٤/٢): وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي سُورَةِ مَدِينَةٍ، خَاطَبَ اللَّهُ بِهَا أَهْلَ الْإِيمَانِ وَخِيَارَ خَلْقِهِ أَنْ يَتُوبُوا إِلَيْهِ، بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَصَبْرِهِمْ، وَهَجْرَتِهِمْ وَجِهَادِهِمْ، ثُمَّ عَلَّقَ الْفَلَاحَ بِالتَّوْبَةِ تَعْلِيْقَ الْمُسَبَّبِ بِسَبَبِهِ، وَأَتَى بِأَدَاةٍ لَعَلَّ الْمُسْعِرَةَ بِالترَّجِّي، إِذْ أَنَا بِأَنْكُمْ إِذَا تُبْتُمْ كُنْتُمْ عَلَى رَجَاءِ الْفَلَاحِ، فَلَا يَرْجُو الْفَلَاحَ إِلَّا التَّائِبُونَ، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ. قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١) [الحجرات] قَسَمَ الْعِبَادَ إِلَى تَائِبٍ وَظَالِمٍ، وَمَا تَمَّ قَسَمُ ثَالِثِ الْبَيِّنَةِ، وَأَوْقَعَ اسْمَ الظَّالِمِ عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ، وَلَا أَظْلَمَ مِنْهُ، لِجَهْلِهِ بِرَبِّهِ وَبِحَقِّهِ، وَبِعَيْبِ نَفْسِهِ وَآفَاتِ أَعْمَالِهِ. اهـ

وهذا الكلام بعينه في «مدارج السالكين» لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (١٩٦/١).

وقال ابن عادل رَحِمَهُ اللَّهُ في «اللباب في علوم الكتاب» (٢١٠/١٩): أمر بالتَّوْبَةِ، وهي فرض على الأعيان في كُلِّ الأحوال، وكُلِّ الأزمان. اهـ

وقال ابن القيم رحمه الله في «المدارج» (١/٢٨٣): الْمُبَادَرَةُ إِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ فَرَضٌ عَلَى الْفَوْرِ، وَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُهَا، فَمَتَى أَخْرَهَا عَصَى بِالتَّأْخِيرِ، فَإِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ بَقِيَ عَلَيْهِ تَوْبَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ تَوْبَتُهُ مِنْ تَأْخِيرِ التَّوْبَةِ، وَقَلَّ أَنْ تَخْطُرَ هَذِهِ بِيَالِ التَّائِبِ، بَلْ عِنْدَهُ أَنَّهُ إِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ شَيْءٌ آخَرُ، وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْ تَأْخِيرِ التَّوْبَةِ، وَلَا يُنْجِي مِنْ هَذَا إِلَّا تَوْبَةٌ عَامَّةٌ، مِمَّا يَعْلَمُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُ. اهـ

وقال ابن مفلح رحمه الله في «الآداب الشرعية» (١/١٠٧): وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ فِي الْغِيَّةِ: التَّوْبَةُ فَرَضٌ عَيْنٍ فِي حَقِّ كُلِّ شَخْصٍ وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ لِأَنَّهُ إِنْ خَلَا عَنْ مَعْصِيَةِ الْجَوَارِحِ فَلَا يَخْلُو عَنْ الْهَمِّ بِالذَّنْبِ بِالْقَلْبِ، وَإِنْ خَلَا فَلَا يَخْلُو عَنْ وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ بِإِيرَادِ الْخَوَاطِرِ الْمُفْتَرَقَةِ الْمُذْهِلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ خَلَا فَلَا يَخْلُو عَنْ غَفْلَةٍ وَقُصُورٍ فِي الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ. اهـ

### جنس ما يتاب منه

التوبة واجبة من ترك الواجبات ومن جميع الذنوب والمعاصي كبيرها وصغيرها وجليلها وحقيقها وعلى المسلم أن لا يستصغر





شيئاً من الذنوب والمعاصي فإنها من أسباب موت القلب ففي مسلم (١٤٤) عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَيْضَ مِثْلِ الصِّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ، مُحْجَا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ»

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ، زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]» أخرجه أحمد (٧٩٥٢).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رحمته الله:

رَأَيْتُ الدُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ	وَقَدْ يُوْرِثُ الدُّلَّ إِذْمَانَهَا
وَتَرَكْتُ الدُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ	وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا
وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ	وَأَخْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «المدارج» فِي بَيَانِ جِنْسِ مَا يُتَابَ مِنْهُ (٣٤٤/١): وَهِيَ اثْنَا عَشَرَ جِنْسًا مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، هِيَ أَجْنَاسُ الْمُحَرَّمَاتِ: الْكُفْرُ، وَالشِّرْكُ، وَالنِّفَاقُ، وَالْفُسُوقُ، وَالْعِصْيَانُ، وَالْإِثْمُ، وَالْعُدْوَانُ، وَالْفَحْشَاءُ، وَالْمُنْكَرُ، وَالْبَغْيُ، وَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، وَاتِّبَاعُ غَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ. فَهَذِهِ الْإِثْنَا عَشَرَ جِنْسًا عَلَيْهَا مَدَارُ كُلِّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَإِلَيْهَا انْتِهَاءُ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِمْ إِلَّا أَتْبَاعَ الرُّسُلِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الرَّجُلِ أَكْثَرُهَا وَأَقْلَاهَا، أَوْ وَاحِدَةٌ مِنْهَا، وَقَدْ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَقَدْ لَا يَعْلَمُ، فَالْتَّوْبَةُ النَّصُوحُ هِيَ بِالتَّخْلِصِ مِنْهَا، وَالتَّحَصُّنِ وَالتَّحَرُّزِ مِنْ مُوَاقَعَتِهَا. اهـ

## كيفية التوبة

تكون التوبة بترك المحذور وفعل المأمور، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «المدارج» (٣٢٠/١) فِي كَلَامِهِ حَوْلَ مَبْدَأِ التَّوْبَةِ: فَمَبْدَاؤُهَا الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ بِسُلُوكِ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي نَصَبَهُ لِعِبَادِهِ، مُوَصِّلًا إِلَى رِضْوَانِهِ، وَأَمْرُهُمْ بِسُلُوكِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]



وَبَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿[الشورى: ٥٢-٥٣]. اهـ

وقال **رحمهُ الله** (٣١٣/١): فَإِنَّ حَقِيقَةَ التَّوْبَةِ الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ بِالنِّزَامِ فِعْلٌ مَا يُحِبُّ، وَتَرْكُ مَا يَكْرَهُ، فَهِيَ رُجُوعٌ مِنْ مَكْرُوهٍ إِلَى مُحْبُوبٍ، فَالرَّجُوعُ إِلَى الْمُحْبُوبِ جُزْءٌ مُسَمَّاهَا، وَالرَّجُوعُ عَنِ الْمَكْرُوهِ الْجُزْءُ الْآخَرُ، وَلِهَذَا عَلَّقَ سُبْحَانَهُ الْفَلَاحَ الْمُطْلَقَ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمُحْظُورِ بِهَا، فَقَالَ ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣١﴾ [النور] فَكُلُّ تَائِبٍ مُفْلِحٌ، وَلَا يَكُونُ مُفْلِحًا إِلَّا مَنْ فَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ١١﴾ [الحجرات] وَتَارِكُ الْمَأْمُورِ ظَالِمٌ، كَمَا أَنَّ فَاعِلَ الْمُحْظُورِ ظَالِمٌ، وَزَوَالَ اسْمِ الظُّلْمِ عَنْهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالتَّوْبَةِ الْجَامِعَةِ لِلْأَمْرَيْنِ، فَالنَّاسُ قِسْمَانِ: تَائِبٌ وَظَالِمٌ لَيْسَ إِلَّا. اهـ

### تَوْبَةُ الْعَاجِزِ عَنِ الذَّنْبِ

قال ابن مفلح **رحمهُ الله** في «الأداب الشرعية» (١٠٧/١): وَتَصَحُّ تَوْبَةٍ مَنْ عَجَزَ عَمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ كَتَوْبَةِ الْأَقْطَعِ عَنِ السَّرِقَةِ وَالزَّيْمِ عَنِ السَّعْيِ إِلَى حَرَامٍ وَالْمُحْبُوبِ عَنِ الزَّنَا وَمَقْطُوعِ

اللِّسَانِ عَنِ الْقَذْفِ، وَالْمُرَادُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا تَابَ مِنْهُ كَانَ قَدْ وَقَعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ مِنْ عَزْمِهِ عَلَى الْمُعْصِيَةِ لَوْ قَدَّرَ عَلَيْهَا.

وقال (١٢٥/١): وَظَاهِرُ كَلَامِ بَعْضِ أَصْحَابِنَا وَغَيْرِهِمْ صِحَّةُ التَّوْبَةِ مِنْ كُلِّ مَا حَصَلَتْ فِيهِ الْمُخَالَفَةُ أَوْ أَدْنَى غَفْلَةٍ وَإِنْ لَمْ يَأْتُمْ. اهـ

## مهما عظم الذنب فمن يحول بينه وبين التوبة

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فُذُلًا عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَفَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فُذُلًا عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَاَنْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ نَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ،



فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِنَّ كَانَ أَذْنِي فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنِي إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، قَالَ قَتَادَةُ: فَقَالَ الْحَسَنُ ذُكِرَ لَنَا، أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ<sup>(١٢)</sup>.

فهذا العبد قد أسرف على نفسه جدا ومع ذلك لما حصلت منه التوبة النصوح الصادقة تجاوز الله تعالى عنه.

### أسباب سقوط العقوبة عن المذنب

قال ابن أبي العز رحمه الله في «شرح الطحاوية ت الأرنؤوط» (٢ / ٤٥١): «وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ قَدْ يُعْفَى لِصَاحِبِ الْإِحْسَانِ الْعَظِيمِ مَا لَا يُعْفَى لِغَيْرِهِ، فَإِنَّ فَاعِلَ السَّيِّئَاتِ تَسْقُطُ عَنْهُ عُقُوبَةُ جَهَنَّمَ بِنَحْوِ عَشْرَةِ أَسْبَابٍ، عُرِفَتْ بِالِاسْتِقْرَاءِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

**السَّبَبُ الْأَوَّلُ: التَّوْبَةُ،** قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [مريم: ٦٠].  
 ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [البقرة: ١٦٠]. وَالتَّوْبَةُ النَّصُوحُ، وَهِيَ الْحَالِصَةُ، لَا يَخْتَصُّ بِهَا ذَنْبٌ دُونَ ذَنْبٍ، لَكِنْ هَلْ تَتَوَقَّفُ صِحَّتُهَا عَلَى أَنْ تَكُونَ عَامَّةً؟ حَتَّى لَوْ تَابَ مِنْ ذَنْبٍ وَأَصَرَ عَلَى آخَرٍ لَا

تُقْبَلُ ؟ وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا تُقْبَلُ. وَهَلْ يَجِبُ الْإِسْلَامُ مَا قَبْلَهُ مِنَ الشُّرْكِ وَغَيْرِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَإِنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا ؟ أَمْ لَا بُدَّ مَعَ الْإِسْلَامِ مِنَ التَّوْبَةِ مِنْ غَيْرِ الشُّرْكِ ؟ حَتَّى لَوْ أَسْلَمَ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى الزَّنا وَشُرْبِ الْخَمْرِ مَثَلًا، هَلْ يُؤَاخَذُ بِمَا كَانَ مِنْهُ فِي كُفْرِهِ مِنَ الزَّنا وَشُرْبِ الْخَمْرِ ؟ أَمْ لَا بُدَّ أَنْ يَتُوبَ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ مَعَ إِسْلَامِهِ ؟ أَوْ يَتُوبَ تَوْبَةً عَامَّةً مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ ؟ وَهَذَا هُوَ الْأَصَحُّ: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ التَّوْبَةِ مَعَ الْإِسْلَامِ، وَكَوْنُ التَّوْبَةِ سَبَبًا لِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ وَعَدَمُ الْمُؤَاخَذَةِ بِهَا - مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَكُونُ سَبَبًا لِغُفْرَانِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ إِلَّا التَّوْبَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٢] وَهَذَا لِمَنْ تَابَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ [الزمر: ٥٣] وَقَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤] الْآيَةُ.

**السَّبَبُ الثَّانِي: الْاسْتِغْفَارُ،** قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. لَكِنَّ الْاسْتِغْفَارَ تَارَةً يُذَكَّرُ وَحْدَهُ، وَتَارَةً يُقْرَنُ بِالتَّوْبَةِ، فَإِنْ ذُكِرَ وَحْدَهُ دَخَلَ مَعَهُ التَّوْبَةُ، كَمَا إِذَا ذُكِرَتِ التَّوْبَةُ وَحْدَهَا شَمِلَتْ الْاسْتِغْفَارَ. فَالتَّوْبَةُ تَتَّصِفُ بِالْإِسْتِغْفَارِ، وَالْإِسْتِغْفَارُ يَتَّصِفُ بِالتَّوْبَةِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَدْخُلُ

فِي مُسَمًّى الْآخِرِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ، وَأَمَّا عِنْدَ اقْتِرَانِ إِحْدَى اللَّفْظَتَيْنِ بِالْأُخْرَى، فَلَا سِتْغْفَارَ: طَلَبُ وَقَايَةِ شَرِّ مَا مَضَى، وَالتَّوْبَةُ: الرَّجُوعُ وَطَلَبُ وَقَايَةِ شَرِّ مَا يَخَافُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِ. وَنَظِيرُ هَذَا: الْفَقِيرُ وَالْمِسْكِينُ، إِذَا ذُكِرَ أَحَدُ اللَّفْظَتَيْنِ شَمِلَ الْآخَرَ، وَإِذَا ذُكِرَا مَعًا كَانَ لِكُلِّ مِنْهُمَا مَعْنَى. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ [المائدة: ٨٩]. ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]. ﴿وَلِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. لَا خِلَافَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَسْمَيْنِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ لَمَّا أُفْرِدَ شَمِلَ الْمُقِلَّ وَالْمُعْدِمَ، وَلَمَّا قُرِنَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] الْآيَةِ: كَانَ الْمُرَادُ بِأَحَدِهِمَا الْمُقِلَّ، وَالْآخَرَ الْمُعْدِمَ، عَلَى خِلَافٍ فِيهِ. وَكَذَلِكَ: الْإِثْمُ وَالْعُدْوَانُ، وَالْبِرُّ وَالتَّقْوَى، وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ. وَيَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى: الْكُفْرُ وَالتَّنَاقُ، فَإِنَّ الْكُفْرَ أَعَمُّ، فَإِذَا ذُكِرَ الْكُفْرُ شَمِلَ التَّنَاقُ، وَإِنْ ذُكِرَا مَعًا كَانَ لِكُلِّ مِنْهُمَا مَعْنَى. وَكَذَلِكَ الْإِبْيَانُ وَالْإِسْلَامُ، عَلَى مَا يَأْتِي الْكَلَامُ فِيهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

**السَّبَبُ الثَّالِثُ: الْحَسَنَاتُ:** فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَفْئَالِهَا وَالسَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا، فَالْوَيْلُ لِمَنْ غَلَبَتْ آحَادُهُ أَعْشَارُهُ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا».

**السَّبَبُ الرَّابِعُ: الْمَصَائِبُ الدُّنْيَوِيَّةُ** قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ، وَلَا غَمٍّ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا - إِلَّا كُفِّرَ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ». وَفِي الْمُسْنَدِ: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَزَلَتْ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ، وَأَيُّنَا لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا؟ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟ فَذَلِكَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ. فَالْمَصَائِبُ نَفْسُهَا، مُكَفَّرَةٌ، وَبِالصَّبْرِ عَلَيْهَا يُثَابُ الْعَبْدُ، وَبِالتَّسَخُّطِ يَأْتُمُ. فَالصَّبْرُ وَالتَّسَخُّطُ أَمْرٌ آخَرُ غَيْرُ الْمُصِيبَةِ، فَالْمُصِيبَةُ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ لَا مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ، وَهِيَ جَزَاءٌ مِنَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ عَلَى ذَنْبِهِ، وَيُكَفِّرُ ذَنْبَهُ بِهَا، وَإِنَّمَا يُثَابُ الْمَرْءُ وَيَأْتُمُ عَلَى فِعْلِهِ، وَالصَّبْرُ وَالتَّسَخُّطُ مِنْ فِعْلِهِ، وَإِنْ كَانَ الثَّوَابُ وَالْأَجْرُ قَدْ يَحْصُلُ بِغَيْرِ عَمَلٍ مِنَ الْعَبْدِ، بَلْ هَدِيَّةٌ مِنَ الْغَيْرِ، أَوْ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُؤْتِ مِنْ





لَدَنَّهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ [النساء: ٤٠]. فَنَفْسُ الْمَرْضِ جَزَاءٌ وَكَفَّارَةٌ  
لِمَا تَقَدَّمَ.

وَكَثِيرًا مَا يُفْهَمُ مِنَ الْأَجْرِ غُفْرَانُ الذُّنُوبِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ  
مَدْلُولُهُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مِنْ لَازِمِهِ.

السَّبَبُ الْخَامِسُ: عَذَابُ الْقَبْرِ.

السَّبَبُ السَّادِسُ: دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَاسْتِغْفَارُهُمْ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ  
الْمَمَاتِ.

السَّبَبُ السَّابِعُ: مَا يُهْدَى إِلَيْهِ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ ثَوَابٍ صَدَقَةٍ أَوْ قِرَاءَةٍ  
أَوْ حَجٍّ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

السَّبَبُ الثَّامِنُ: أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَشِدَائِدُهُ.

السَّبَبُ التَّاسِعُ: مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا  
عَبَرُوا الصَّرَاطَ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ  
مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُتُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ».

السَّبَبُ الْعَاشِرُ: شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ.

السَّبَبُ الْحَادِي عَشَرَ: عَفْوُ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ لِلذُّنُوبِ مِنْ غَيْرِ  
شَفَاعَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:

[٤٨]. فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ لِعِظَمِ جُرْمِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ دُخُولِهِ إِلَى الْكَبِيرِ، لِيَخْلُصَ طَيْبُ إِيْمَانِهِ مِنْ خَبَثِ مَعَاصِيهِ، فَلَا يَبْقَى فِي النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، بَلْ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. اهـ

**الحذر من اليأس والأمن من الله عز وجل بعباده**

يجب على المسلم أن يعيش طامعا فيما عند الله تعالى خائفا منه فلا يأمن مكر الله تعالى به قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىءِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٌ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىءِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف] وهو القائل سبحانه وتعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر].

قال ابن كثير في «تفسيره» (١٢٧ / ٧): وَقَوْلُهُ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أي: يَغْفِرُ مَا سَلَفَ مِنَ الذَّنْبِ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَخَضَعَ لَدَيْهِ.



وَقَوْلُهُ: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أَي: لِمَنْ تَمَرَّدَ وَطَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَعَتَا عَنْ أَوْامِرِ اللَّهِ، وَبَغَى، وَقَدْ اجْتَمَعَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ [الحجر] يَقْرُنُ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ كَثِيرًا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ؛ لِيَبْقَى الْعَبْدُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ. انتهى.

وقال تعالى: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفُؤْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧) [يوسف]. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٨) [الشورى].

قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» (٢٠٦/٧): أَي: مِنْ بَعْدِ إِيَّاسِ النَّاسِ مِنْ نُزُولِ الْمَطَرِ، يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِمْ فِي وَقْتِ حَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ (٤٩) [الروم]. اهـ.

وعند البزار (٣١٦٨) عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا تُسْأَلُ عَنْهُمْ: رَجُلٌ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ وَعَصَى إِمَامَهُ وَمَاتَ عَاصِيًا، وَأَمَةٌ أَوْ عَبْدٌ أَبَى

مِنْ سَيِّدِهِ فَمَاتَ، وَامْرَأَةٌ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَقَدْ كَفَّاهَا أَمْرُ الدُّنْيَا  
فَتَبَرَّجَتْ بَعْدَهُ، وَثَلَاثَةٌ لَا تُسْأَلُ عَنْهُمْ: رَجُلٌ نَازَعَ اللَّهَ رِدَاءَهُ، فَإِنَّ  
رِدَاءَهُ الْكِبَرُ، وَإِزَارَهُ الْعِزَّةُ، وَرَجُلٌ كَانَ فِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ،  
وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» هذا حديث صحيح، وهو في «الصحيح  
المسند» (٩/٢) لشيخنا الوادعي رحمه الله.

وعند عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٤٨/١): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
مَسْعُودٍ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ،  
وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ» هذا موقوف  
صحيح.

وعند البزار رحمه الله كما في «كشف الأستار» (٧١/١): عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْكِبَائِرُ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ  
بِاللَّهِ، وَالْإِيَّاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ».

قال الهيثمي رحمه الله في «المجمع» (١٠٤/١): رَوَاهُ الْبَزَّازُ  
وَالطَّبْرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ مُوْتَقُونَ. اهـ

**قلت:** كذا قال: لكن في سنده شيب بن بشر قال البخاري فيه  
منكر الحديث.



فعلى هذا ينبغي للمؤمن أن يكون حاله مع الله عز وجل بين  
الخوف والرجاء ولا يقنط من رحمة الله، فإنه تعالى يقول: «أَنَا عِنْدَ  
ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيُظَنَّ بِي مَا شَاءَ» (١٣).

وما أحسن ما قاله ابن القيم رحمته الله في «الزاد» (٣/٢٣٥ -  
٢٣٧): فَلْيَعْتَنِ اللَّيْبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا الْمَوْضِعِ وَلْيُتَبَّ إِلَى اللَّهِ  
تَعَالَى وَلْيَسْتَغْفِرْهُ كُلَّ وَقْتٍ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ وَلْيُظَنَّ السَّوِّءَ  
بِنَفْسِهِ الَّتِي هِيَ مَأْوَى كُلِّ سُوءٍ وَمَنْبُعُ كُلِّ شَرٍّ الْمُرْكَبَةُ عَلَى الْجَهْلِ  
وَالظُّلْمِ فِيهِى أَوْلَى بِظَنِّ السَّوِّءِ مِنْ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ وَأَعْدَلِ الْعَادِلِينَ  
وَأَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ الْغَنِيِّ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ الْغِنَى التَّامُّ وَالْحَمْدُ التَّامُّ  
وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ الْمُتَنَزَّهِ عَنْ كُلِّ سُوءٍ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَسْمَائِهِ  
فَذَاتُهُ لَهَا الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَصِفَاتُهُ كَذَلِكَ وَأَفْعَالُهُ  
كَذَلِكَ كُلُّهَا حِكْمَةٌ وَمَصْلَحَةٌ وَرَحْمَةٌ وَعَدْلٌ وَأَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا حُسْنَى

فَلَا تَظُنَّنَّ بِرَبِّكَ ظَنًّا سَوْئًا      فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ  
وَلَا تَظُنَّنَّ بِنَفْسِكَ قَطَّ خَيْرًا      وَكَيْفَ بِظَالِمِ جَانٍ جَهُولِ  
وَقُلْ يَا نَفْسُ مَأْوَى كُلِّ سُوءٍ      أَيَّرَجَى الْخَيْرُ مِنْ مَيِّتٍ بِخَيْلِ

وَضَنَّ بِنَفْسِكَ السَّوْأَى تَجِدْهَا      كَذَاكَ وَخَيْرُهَا كَالْمُسْتَحِيلِ  
وَمَا بِكَ مِنْ ثَقَى فِيهَا وَخَيْرٍ      فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّبِّ الْجَلِيلِ  
وَلَيْسَ بِهَا وَلَا مِنْهَا وَلَكِنْ      مِنَ الرَّحْمَنِ فَاشْكُرْ لِلدَّلِيلِ

قال ابن أبي العز رحمته الله في «شرح الطحاوية» (٢/٤٥٦):

يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ خَائِفًا رَاجِيًا، فَإِنَّ الْخَوْفَ الْمُحْمُودَ  
الصَّادِقَ: مَا حَالَ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَإِذَا تَجَاوَزَ ذَلِكَ  
خِيفَ مِنْهُ الْيَأْسُ وَالْقَنُوطُ. وَالرَّجَاءُ الْمُحْمُودُ: رَجَاءُ رَجُلٍ عَمِلَ  
بِطَاعَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، فَهُوَ رَاجٍ لِثَوَابِهِ، أَوْ رَجُلٍ أَذْنَبَ ذَنْبًا  
ثُمَّ تَابَ مِنْهُ إِلَى اللَّهِ، فَهُوَ رَاجٍ لِمَغْفِرَتِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ  
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ  
رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

أَمَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُتَمَادِيًا فِي التَّفْرِيطِ وَالْخَطَايَا، يَرْجُو رَحْمَةَ اللَّهِ  
بِلَا عَمَلٍ، فَهَذَا هُوَ الْغُرُورُ وَالتَّمَنِّي وَالرَّجَاءُ الْكَاذِبُ.

قَالَ: أَبُو عَلِيٍّ الرُّوْذِبَارِيُّ رحمته الله: الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ كَجَنَاحِي  
الطَّائِرِ، إِذَا اسْتَوَيَا اسْتَوَى الطَّيْرُ وَتَمَّ طِيرَانُهُ، وَإِذَا نَقَصَ أَحَدُهُمَا  
وَقَعَ فِيهِ النِّقْصُ، وَإِذَا ذَهَبَا صَارَ الطَّائِرُ فِي حَدِّ الْمَوْتِ.



وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ أَهْلَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمَنْ هُوَ قَلْبُكَ  
 إِذَا لَقِيَ اللَّهَ﴾ [الزمر: ٩] ﴿أَمِنْ هُوَ قَلْبُكَ إِذَا لَقِيَ اللَّهَ  
 الْآيَةَ. وَقَالَ: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا  
 وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] الْآيَةَ. فَالرَّجَاءُ يَسْتَلْزِمُ الْخَوْفَ، وَلَوْلَا  
 ذَلِكَ لَكَانَ أَمْنًا، وَالْخَوْفُ يَسْتَلْزِمُ الرَّجَاءَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ قُنُوطًا  
 وَيَأْسًا. وَكُلُّ أَحَدٍ إِذَا خِفْتَهُ هَرَبَتْ مِنْهُ، إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِنَّكَ إِذَا  
 خِفْتَهُ هَرَبْتَ إِلَيْهِ، فَالْخَائِفُ هَارِبٌ مِنْ رَبِّهِ إِلَى رَبِّهِ. اهـ

## شروط التوبة

وبعد هذه المقدمات المختصرة أشرع بعون الله تعالى في ذكر شروط التوبة المقبولة عند الله ﷻ إن شاء وسيكون تقسيمها على النحو التالي:

- أولاً: توبة العبد فيما بينه وبين الله.

- ثانياً: توبة العبد في حقوق الأدميين.

- ثالثاً: توبة الكافر.

- رابعاً: توبة المنافق.

- خامساً: توبة المبتدع.

فلعلَّ الله ﷻ أن ينفع بها المسلمين فإن الناس قد تخطوا وخطوا في هذا الباب مع أنه ينبغي أن يكون منضبطاً لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ [التحریم: ٨].



قال ابن كثير رحمته الله في «تفسيره» (١٦٨/٨)، في قوله تعالى: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾: أَي: تَوْبَةٌ صَادِقَةٌ جَازِمَةٌ، تَمْحُو مَا قَبْلَهَا مِنَ السَّيِّئَاتِ وَتُلْغِي شَعَثَ التَّائِبِ وَتَجْمَعُهُ، وَتَكْفِيهِ عَمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ الدَّنَاءَاتِ. اهـ

وقال ابن مفلح رحمته الله في «الآداب الشرعية» (٨٥/١-٨٦): التَّوْبَةُ النَّصُوحُ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ قَالَ: نَدَمٌ بِالْقَلْبِ وَاسْتِغْفَارٌ بِاللِّسَانِ، وَتَرْكُ الْجَوَارِحِ، وَإِضْمَارُ أَنْ لَا يَعُودَ. قال: وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: قَالَ عُمَرُ، وَأَبِي وَمُعَاذُ رضي الله عنهم التَّوْبَةُ النَّصُوحُ أَنْ يَتُوبَ ثُمَّ لَا يَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ كَمَا لَا يَعُودُ اللَّبَنُ إِلَى الضَّرْعِ كَذَا قَالَ وَالْكَلامُ فِي صِحَّتِهِ عَنْهُمْ نظر. اهـ

وقال (٨٦/١): التَّوْبَةُ النَّصُوحُ تَجْمَعُ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ: النَّدَمُ بِالْقَلْبِ، وَالِاسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ، وَإِضْمَارُ أَنْ لَا يَعُودَ، وَجُنَابَةُ خُلَاطِئِ السُّوءِ. اهـ

**مسألة هل يشترط التلفظ بالتوبة: الظاهر والله أعلم اشتراطه،**

قال ابن مفلح رحمته الله في «الآداب الشرعية» (٨٤/١): وَقِيلَ: يُشْتَرَطُ مَعَ ذَلِكَ: اللَّهُمَّ إِنِّي تَائِبٌ إِلَيْكَ مِنْ كَذَا، وَكَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ

الله... وقال: وَلَمْ أَجِدْ مَنْ صَرَّحَ بِاعْتِبَارِهِمَا وَلَا أَعْلَمُ لَهُ وَجْهًا، ثم ذكر رحمه الله حديث أنس عند الترمذي وقد تقدم أنه يلزم التلفظ بها وهذا هو الراجح والله أعلم. اهـ بتصرف

### **أولاً: توبة العبد من الذنب الذي بينه وبين الله ﷻ**

كأن يكون تارك صلاة وغيرها من المعاصي التي لا تتعلق بحق آدمي فهذه لها خمسة شروط هي:

١- **الإخلاص لله ﷻ** أن يتوب الله عليه ويتجاوز عما فعل من المعصية لا يقصد بذلك مراعاة الناس والتقرب إليهم ولا يقصد بذلك إلا وجه الله والدار الآخرة وأن يعفو الله عن ذنوبه ، يدل على ذلك حديث: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**» متفق عليه<sup>(١٤)</sup> من حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] والتوبة عبادة يجب فيها الإخلاص كغيرها من العبادات وإن مل يخلص فيها لله ردت على صاحبها لقوله تعالى في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى**



الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ  
وَشُرَكَهُ» (١٥).

قال القرطبي رحمه الله في «المفهم» (٧٠/٧) في كلامه على من  
جعل التوبة هي الندم والإقلاع والعزم على عدم العود: بيان  
الأول أنه قد يندم ويقلع ويعزم ولا يكون تائباً شرعاً إذ قد يفعل  
ذلك شحاً على ماله أو لا يعيّرهُ الناس من ذلك ولا تصح التوبة  
الشرعية إلا بالنية والإخلاص فإنها من أعظم العبادات الواجبات  
ولذلك قال الله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ثُبُوءًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾  
[التحریم: ٨]. اهـ

٢- **الإقلاع عن المعصية** التي هو فيها والإقلاع عن الذنب  
يكون بحسبه فإن كان الذنب ترك واجب فالإقلاع عنه بفعله وإن  
كانت المعصية بفعل محرم فالواجب أن يقلع عنه فوراً ولا يبقى  
فيه لحظة ويدل على ذلك مثل قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ  
كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]  
وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي

حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾  
 [الفرقان] إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَرَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٧٠﴾  
 [الفرقان] وهذا الشرط يدخل عليه كما قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في  
 «المفهم» (٧٠/٧): فبيانه أنه يخرج منه من زنى ثم قطع ذكره فإنه  
 لا يتأتى منه غير الندم على ما مضى من الزنا. اهـ

وقال ابن القيم **رحمته الله** في «المدارج» (٢٠٠/١): وَأَمَّا الْإِفْلَاحُ:  
 فَتَسْتَحِيلُ التَّوْبَةُ مَعَ مُبَاشَرَةِ الذَّنْبِ. اهـ  
 وقال ابن مفلح **رحمته الله** في «الآداب الشرعية» (٧١/١): وَلَا  
 تَصِحُّ التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ أَصَرَّ عَلَى مِثْلِهِ. اهـ

٣- **الندم على فعل المعصية** لأن الشعور بالذنب هو الذي يدل  
 على أنه صادق في التوبة وقديما قيل التوبة ندم، قال الله تعالى مخبرا  
 عن موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ إِنَّكَ هُوَ  
 الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ [القصص] وقال مخبرا عن يونس: ﴿لَا إِلَهَ  
 إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ [الأنبياء].  
 قال ابن القيم **رحمته الله** في «مدارج السالكين» (١٩٩/١): قَالَ -



صاحب - المَنَازِلِ: قَالَ: وَشَرَّائِطُ التَّوْبَةِ ثَلَاثَةٌ: النَّدَمُ، وَالْإِقْلَاعُ،  
وَالْإِعْتِذَارُ. اهـ

قال ابن القيم رحمته الله في «مدارج السالكين» (١/٢٠٠): فَأَمَّا  
النَّدَمُ: فَإِنَّهُ لَا تَحَقُّقُ التَّوْبَةِ إِلَّا بِهِ، إِذْ مَنْ لَمْ يَنْدَمْ عَلَى الْقَبِيحِ فَذَلِكَ  
دَلِيلٌ عَلَى رِضَاهُ بِهِ، وَإِصْرَارِهِ عَلَيْهِ، وَفِي الْمُسْنَدِ «النَّدَمُ تَوْبَةٌ». وَفِي  
قوله: (وَالْإِعْتِذَارُ) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مدارج السالكين»  
(١/٢٠٠): وَالَّذِي ظَهَرَ لِي مِنْ كَلَامِ صَاحِبِ الْمَنَازِلِ أَنَّهُ أَرَادَ  
بِالْإِعْتِذَارِ إِظْهَارَ الضَّعْفِ وَالْمُسْكَنَةِ. اهـ

٤- العزم على عدم العود إلى هذه المعصية ولا يشكل على ذلك  
حديث أبي هريرة رضي الله عنه الآنف الذكر في المقدمة «قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي  
فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» (١٦) فليس في الحديث أن الرجل حين كان يتوب  
وهو عازم على العود ولكنه كان يتوب توبة صادقة مستوفية  
الشروط ثم تغلبه نفسه وشهوته وشيطانه ويعود في الذنب  
وهكذا، والله أعلم.

هـ - أن تكون في زمن يقبل فيه التوبة والزمن الذي لا تقبل فيه التوبة يكون باعتبارين الأول: باعتبار كل إنسان بحسبه، والثاني: باعتبار العموم.

أما الأول فأن تكون التوبة قبل حلول الأجل لقول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٧)

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْنِ وَكُنَّا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١٨) [النساء: ١٧ - ١٨]

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية (٢/٢٣٨) بعد أن ساق مثل حديث أبي هريرة رضي الله عنه: فَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ عَلَى أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ يَرْجُو الْحَيَاةَ، فَإِنَّ تَوْبَتَهُ مَقْبُولَةٌ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٧) [النساء] فَأَمَّا مَتَى وَقَعَ الْإِيَّاسُ مِنَ الْحَيَاةِ، وَعَايَنَ الْمَلَكُ، وَحَشَرَجَتِ الرُّوحُ فِي الْخَلْقِ، وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ، وَبَلَغَتِ الْخُلُقُومَ، وَغَرَّغَتِ النَّفْسُ صَاعِدَةً فِي الْغَلَاصِمِ فَلَا تَوْبَةَ مُتَقَبَّلَةً



حِينَئِذٍ، وَلَا تَحِينَ مَنَاصٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِثْمَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٨) [النساء: ١٨]. اهـ

قال ابن مفلح رحمه الله في «الآداب الشرعية» (١/ ١١٥-١١٧):  
فَصَلَّ قَبُولُ التَّوْبَةِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا: رَوَى أَحْمَدُ  
وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ  
بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ. وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ  
حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَالٍ مَرْفُوعًا «بَابٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ مَسِيرَةٌ  
عَرْضُهَا أَرْبَعُونَ أَوْ سَبْعُونَ سَنَةً خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ خَلَقَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ  
مِنْهُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ  
مَاجَهَ. وَمُسْلِمٌ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا «مَنْ تَابَ قَبْلَ  
أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا  
«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا

النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَيْدِي رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ١٥٨] قَالَ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ وَلَمْ يَرْفَعْهُ قَالَ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ قَالَ الْعُلَمَاءُ هَذَا حَدٌّ لِقَبُولِ التَّوْبَةِ.

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا «ثَلَاثَةٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ» فَهَذَا الْمُرَادُ بِهِ أَنَّ طُلُوعَ الشَّمْسِ آخِرَ الثَّلَاثَةِ خُرُوجًا فَلَا تَعَارُضَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا سَبَقَ.

وَقَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ فِيهِ أَنَّ حُكْمَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي أَنَّ نَفْسًا لَا يَنْفَعُهَا إِيْمَانُهَا الْحُكْمُ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا كَذَا قَالَ. وَأَمَّا مَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «تَخْرُجُ الدَّابَّةُ وَمَعَهَا خَاتَمُ سُلَيْمَانَ وَعَصَا مُوسَى فَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ وَتَخْطُمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتَمِ حَتَّىٰ إِنَّ أَهْلَ الْخِوَانِ لَيَجْتَمِعُونَ فَيَقُولُ هَذَا يَا مُؤْمِنُ وَهَذَا يَا كَافِرُ وَيَقُولُ هَذَا يَا كَافِرُ وَيَقُولُ هَذَا يَا مُؤْمِنُ»





رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ وَابْنُ مَاجَهَ وَعِنْدَهُ «تَجَلَّوْا وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بِالْعَصَا» فَهَذَا إِنْ صَحَّ وَفِيهِ نَظَرٌ فَلَا تَعَارُضَ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ خُرُوجُهَا قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَلَيْسَ فِي الْخَبَرِ تَصْرِيحٌ بِأَنَّ الْإِيَّانَ لَا يَنْفَعُ بِخُرُوجِهَا وَقَدْ لَا يَتَّفِقُ إِيَّانُ أَحَدٍ بَعْدَ خُرُوجِ الدَّابَّةِ وَإِنْ كَانَ نَافِعًا وَالزَّمَانُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ طُلُوعِ الشَّمْسِ قَرِيبٌ، وَإِنْ كَانَ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَالْمُرَادُ أَنَّ النَّاسَ لَمَّا آمَنُوا عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا فَقَدْ يَشْتَبِهُ مَنْ تَقَدَّمَ إِسْلَامُهُ بِمَنْ تَأَخَّرَ فَخَرَجَتْ الدَّابَّةُ فَمَيَزَتْ وَبَيَّنَّتْ هَذَا مِنْ هَذَا بِأَمْرٍ جَلِيٍّ وَاضِحٍ. وَلَيْسَ فِي الْخَبَرِ أَيْضًا تَصْرِيحٌ بِأَنَّ الْإِيَّانَ يَنْفَعُ إِلَى خُرُوجِهَا بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَوْلُهُ: «وَتَحْطُمُ أَنْفَ الْكَافِرِ» أَيُّ تَسْمِيهِ بِسْمَةٍ يُعْرَفُ بِهَا، وَالْخَطَأُ سَمَةٌ فِي عُرْضِ الْوَجْهِ إِلَى الْخَدِّ، وَالْخَوَانُ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يُؤْكَلُ عَلَيْهِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّعْدِيِّ مَرْفُوعًا «لَا تَنْقُطُ الْعِجْرَةُ مَا قُوتِلَ الْعَدُوُّ» رَوَاهُ أَحْمَدُ عَنْ الْحَكَمِ بْنِ نَافِعٍ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عِيَّاشٍ عَنْ ضَمْضَمَ بْنِ زُرْعَةَ عَنْ شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ يُخَايْمَرَ عَنْ أَبِي السَّعْدِيِّ، وَفِي آخِرِهِ مَقَالُ مُعَاوِيَةَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو وَابْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «إِنَّ الْعِجْرَةَ خَصَلَتَانِ إِحْدَاهُمَا تَهْجُرُ السَّيِّئَاتِ وَالْأُخْرَى

تُهَاجِرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا تَنْقَطِعُ الْحِجْرَةُ مَا تُقْبِلَتِ التَّوْبَةُ، وَلَا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ طَبَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلُ «إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِيَّاشٍ حَمَاضِيٍّ حَدِيثُهُ عَنْ أَهْلِ بَلَدِهِ جَيِّدٌ عِنْدَ أَكْثَرِ الْمُحَدِّثِينَ، وَصَمَّصُمُ حَمَاضِيٍّ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْخَبَرِ تَرْكُ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ مِنَ الْفَرَائِضِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَيَجِبُ الْإِثْبَانُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُهُ مِنَ الْفَرَائِضِ قَبْلَ ذَلِكَ وَيَنْفَعُهُ مَا يَأْتِي بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ الَّذِي كَانَ يَأْتِي بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ فَقَوْلُهُ: «وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلُ» أَيَّ عَمَلًا لَمْ يَكُونُوا يَفْعَلُونَهُ.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ حَامِدٍ أَنَّ الْمَذْهَبَ: لَا يَنْقَطِعُ التَّكْلِيفُ خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ وَالْمَشْهُورُ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَعْيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَهُوَ الصَّوَابُ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ الْجَوَازِيِّ وَغَيْرُهُ وَقَدْ ذَكَرَ أَقْوَالًا ضَعِيفَةً قَالَ الْمُفَسِّرُونَ مِنْهُمْ ابْنُ الْجَوَازِيِّ: وَإِنَّمَا لَمْ يَنْفَعِ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ حِينَئِذٍ لظُهُورِ الْآيَةِ الَّتِي تَضَطَّرُّهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، ثُمَّ ذَكَرَ ابْنُ الْجَوَازِيِّ عَنِ الضَّحَّاكِ أَنَّ مَنْ أَدْرَكَهُ بَعْضُ الْآيَاتِ وَهُوَ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ مَعَ إيمَانِهِ قَبْلَ مِنْهُ



كَمَا يُقْبَلُ مِنْهُ قَبْلَ الْآيَةِ. انْتَهَى كَلَامُهُ فَظَاهِرُهُ مُحَالَفَةُ كَلَامِ الصَّحَّاحِ  
لَمَّا سَبَقَ وَلَيْسَ بِمُرَادٍ فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي سَبَّهَ ظُهُورُ الْآيَةِ لَا  
يَنْفَعُ لِأَنَّ الْآيَةَ اضْطَرَّتْهُ إِلَيْهِ، وَأَمَّا مَا كَانَ يَعْمَلُهُ فَظُهُورُ الْآيَةِ لَا  
تَأْثِيرَ لَهَا فِيهِ فَيَبْقَى الْحُكْمُ كَمَا كَانَ قَبْلَ الْآيَةِ.

قَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ: النَّفْسُ الْمُؤْمِنَةُ إِنْ لَمْ تَكْسِبْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا حَتَّى  
طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا لَمْ يَنْفَعَهَا مَا تَكْسِبُهُ. وَطُلُوعُ الشَّمْسِ  
مِنْ مَغْرِبِهَا عَلَى ظَاهِرِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ لَا كَمَا تَأَوَّلُهُ مَنْ تَأَوَّلَهُ مِنَ  
الْبَاطِنِيَّةِ، وَهُوَ رَدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ  
الْحُكَمَاءِ وَالْمُنَجِّمِينَ. وَفِيهِ بَيَانُ عَجْزِ نُمْرُودَ فِي مُنَاطَرَتِهِ وَاللَّهُ  
سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ. اهـ

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ  
رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا  
إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾  
[الأنعام: ١٥٨].

وهذه الآية مفسرة بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (١٥٨) قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالِدَّجَالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ» وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (٢٧٠٣) «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

وقال القرطبي رحمته الله في «المفهم» (١٠٥/٧): يعني أن التوبة تصح وتقبل دائما قبل أن تطلع الشمس من مغربها فإذا كان ذلك طبع على كل قلب بما فيه ولم تنفع توبة أحد. اهـ  
إذ يشترط في التوبة أن تكون في زمن ووقت تقبل فيه التوبة فإن لم تكن كذلك فلا توبة للإنسان. راجع «شرح رياض الصالحين» للعثيمين باب التوبة.

قال القرطبي رحمته الله في «المفهم» (٧١/٧): فحق الله تعالى يكفي في التوبة منه الترك الذي ذكرناه - أي ترك اختيار ذنب سبق منك مثله حقيقة أو تقديرا لأجل الله غير أن منها ما لم يكتب



الشرع منه بمجرد الترك بل أضاف إلى بعضها قضاءها كالصلاة والصوم ومنها ما أضاف إليها كفارة كالحث في الأيمان والظهار وغير ذلك فلا يرتفع ضرر ذلك الذنب إلا بتركه وفعل ما أمر الله به من القضاء والكفارة. اهـ

## ثانياً: توبَةُ العبد في حقوق الأدميين

توبة العبد من ذنب بينه وبين من سواه من العبيد ، أخرج مسلم في «صحيحه» (٢٥٨١) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ». قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وغيره - في الصحيح (١٧) «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِزُّهُ»، وفي حديث أَبِي

بكرة في الصحيحين<sup>(١٨)</sup> «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» وفي حديث ابن عمر «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» أخرجه الشيخان<sup>(١٩)</sup>.

وجاء في «صحيح مسلم» (٢٥٨٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «تَتَوَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلُحَاءُ، مِنَ الشَّاةِ الْقُرْنَاءُ» وفي حديث أسامة بن شريك عند البخاري في «الأدب المفرد» (٢٩١) «يَا عِبَادَ اللَّهِ، وَضَعَ اللَّهُ الْحَرْجَ، إِلَّا امْرَأًا اقْتَرَضَ امْرَأًا ظُلْمًا فَذَاكَ الَّذِي حَرَجَ وَهَلَكَ».

وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ»<sup>(٢٠)</sup>.

وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا» أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رضي الله عنه.

(١٨) البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) واللفظ له.

(١٩) البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٨) واللفظ له.

(٢٠) أخرجه مسلم (٢٤٤٩).



إلى غير ذلك من الأحاديث التي تبين عظم انتهاك الحقوق فهل يكفي في التوبة من حقوق الآدميين ما مر في البند الأول أما هنالك شرط زائد؟

**الجواب:** هنالك شرط سادس على ما تقدم وهو التحلل من هذه المظالم التي وقع فيها العبد لأن حقوق العباد مبنية على المشاحة.

قال النووي رحمه الله في «رياض الصالحين» (١٤) حين ذكر الثلاثة الشروط: **وَإِنْ كَانَتْ الْمَعْصِيَةُ تَتَعَلَّقُ بِأَدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أَرْبَعَةٌ: هَذِهِ الثَّلَاثَةُ، وَأَنْ يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صَاحِبِهَا، فَإِنْ كَانَتْ مَالًا أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ حَدًّا قَذَفٍ وَنَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وَإِنْ كَانَتْ غِيَبَةً اسْتَحَلَّهُ مِنْهَا.** اهـ

قال صاحب «مكفرات الذنوب وموجبات الجنة» (٢٧):  
وأجمع العلماء على أن التوبة واجبة من كل ذنب. فإن كانت معصية بين العبد وبين الله تعالى، فلا تتعلق بحق آدمي، فلها شروط ثلاثة:

**أحدها:** أن يقلع عن المعصية. **الثاني:** أن يندم فعلها.

**الثالث:** أن يندم على ألا يعود إليها أبداً.

فإن كانت معصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة، هذه الثلاثة المتقدمة.

**والرابع:** أن يبرأ من حق صاحبها.

فإن كان مالا، أو نحوه رده إليه. وإن كان غيبة استحلّه منها. وإن كان حد قذف، أو نحوه مكنه من القصاص أو طلب عفوّه. والتوبة واجبة على الفور من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحت توبته مما تاب منه، وبقي عليه ما لم يتب منه. اهـ  
لكن قد يسرق الرجل مالاً أو يأخذ ماله فإن اختار إعطاء المال أعطاه ماله حتى يتخلص من تبعات الحقوق وهذه فتوى شيخنا يحيى الحجوري حفظه الله تعالى وغيره من أهل العلم.

قال الإمام ابن مفلح رحمته الله في «الآداب الشرعية» (١/٦١):  
قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ: سَأَلْتُ أَبِي عَنْ رَجُلٍ اخْتَنَانَ مِنْ رَجُلٍ مَالاً، ثُمَّ أَنْفَقَهُ، وَأَتْلَفَهُ، ثُمَّ إِنَّهُ نَدِمَ عَلَى مَا فَعَلَ وَتَابَ وَلَيْسَ عِنْدَهُ مَا يُؤَدِّي فَهَلْ يَكُونُ فِي نَدَمِهِ وَتَوْبَتِهِ مَا يُرْجَى لَهُ بِهِ إِنْ مَاتَ عَلَى فَقْرِهِ خَلَاصٌ مِمَّا عَلَيْهِ؟ فَقَالَ أَبِي: لَا بُدَّ لِهَذَا الرَّجُلِ مِنْ أَنْ يُؤَدِّيَ الْحَقَّ وَإِنْ مَاتَ فَهُوَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ.





وَقَالَ فِي رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَكَمِ فِيمَنْ غَضَبَ أَرْضًا: لَا يَكُونُ تَائِبًا حَتَّى يَرُدَّهَا عَلَى صَاحِبِهَا، إِنْ عَلِمَ شَيْئًا بَاقِيًا مِنَ السَّرَقَةِ رَدَّهَا عَلَيْهِ أَيْضًا، وَقَالَ فِيمَنْ أَخَذَ مِنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ: تَوْبَتُهُ أَنْ يَرُدَّ مَا أَخَذَ. اهـ

**وإن كان الحق غيبة فللعلماء فيه قولان :**

**الأول:** أن يذهب إليه ويتحلل منه.

**الثاني:** يكفي أن يدعو له ويذكره بخير في المجالس التي اغتابه فيها.

وقد فصل الشيخ ابن عثيمين كما في شرح «رياض الصالحين» (٥١٠/٢) تفصيلاً طيباً وهو: إن كانت الغيبة قد بلغت فلهذا يستسمح منه وإن كانت لم تبلغه فإنه يستغفر له ويذكره بخير على ما تقدم وهذا تفصيل جيد، وقد ذكر هذا القول ابن مفلح رحمته الله في «الآداب الشرعية» (٦٢/١) وقال: وَقِيلَ إِنْ عَلِمَ بِهِ الْمُظْلُومُ وَإِلَّا دَعَا لَهُ وَاسْتَغْفَرَ وَلَمْ يَعْلَمْهُ، وَذَكَرَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ أَنَّهُ قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ. اهـ

وذهب شيخنا مقبل رحمته الله: إن كان الرجل إن أخبر أخاه بأنه اغتابه يؤدي إلى شحناء فهنا يكفي أن يستغفر له ويذكره بخير. والله اعلم.

قال ابن مفلح رحمته الله في «الآداب الشرعية» (١/٦٣): قَالَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الرِّوَايَتَيْنِ فِي الْمُسْأَلَةِ الْمَذْكُورَةِ قَالَ: فَكُلُّ مَظْلَمَةٍ فِي الْعَرَضِ مِنْ اغْتِيَابٍ صَادِقٍ وَبَهْتٍ كَاذِبٍ فَهُوَ فِي مَعْنَى الْقَذْفِ إِذْ الْقَذْفُ قَدْ يَكُونُ صِدْقًا فَيَكُونُ فِي الْمُغِيبِ غِيبَةً، وَقَدْ يَكُونُ كَذِبًا فَيَكُونُ بَهْتًا، وَاخْتَارَ أَصْحَابُنَا أَنَّهُ لَا يُعْلَمُهُ بَلْ يَدْعُو لَهُ دُعَاءً يَكُونُ إِحْسَانًا إِلَيْهِ فِي مُقَابَلَةِ مَظْلَمَتِهِ. اهـ

وقال القرطبي رحمته الله في «المفهم» (٧/٧١): وأما حقوق الأدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها فإن لم توصل إلى أربابها لم يتخلص من ضرر ذلك الذنب إلا بتركه وفعل ما أمره الله به ومن اجتهد في الخروج عن الحقوق فلم يقدر على الخروج منها فغفو الله مأمول وفضله مبذول وكم ضمن من التبعات وكم بدل من السيئات بالحسنات. اهـ

قال ابن مفلح رحمته الله في «الآداب الشرعية» (١/١٠٦): وَمَنْ لَمْ يَنْدَمْ عَلَى مَا حُدِّ بِهِ لَمْ يَكُنْ حُدَّهُ تَوْبَةً. ذَكَرَهُ فِي الرِّعَايَةِ، وَذَكَرَهُ



غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ابْنُ عَقِيلٍ قَالُوا هُوَ مُصِرٌّ وَالْحَدُّ عُقُوبَةٌ لَا كَفَّارَةٌ ﴿٣٢﴾ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ [المائدة].

وَاسْتَدَلُّوا بِآيَةِ الْمُحَارَبَةِ. وَالْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ يَكُونُ الْحَدُّ مُسْقِطًا لِإِثْمِ ذَلِكَ الذَّنْبِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَتُهُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ لَقِيَهُ مُصِرًّا غَيْرَ تَائِبٍ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي قَدْ اسْتَوْجَبَ بِهَا الْعُقُوبَةَ فَأَمَرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَمَنْ لَقِيَهُ كَافِرًا عَذَّبَهُ وَلَمْ يَغْفِرْ لَهُ» وَنَقَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَوْفٍ الْحِمَصِيُّ عَنْ أَحْمَدَ نَحْوَ هَذَا إِلَّا أَنَّهُ قَالَ «فَأَمَرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ إِذَا تَوَفَّى عَلَى الْإِسْلَامِ وَالسَّنَةِ» وَلَمْ يَذْكُرُوا مَنْ لَقِيَهُ كَافِرًا إِلَى آخِرِهِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ «تُبَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَصَابَ مِنْكُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ فَأَمَرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ» قَالَ فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ وَسَبَقَ قَرِيبًا حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ فِي النَّجْوَى وَقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

«سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» فَهَذَا لِمَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَلَا أَحَدَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا «مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَعُوقِبَ بِهِ فَاللَّهُ تَعَالَى أَعَدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يُثَنِّي عُقُوبَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَفَا اللَّهُ عَنْهُ فَاللَّهُ تَعَالَى أَكْرَمُ أَنْ يَعُودَ فِي شَيْءٍ عَفَا عَنْهُ» وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ وَالدَّارَقُطْنِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: غَرِيبٌ وَلَمْ أَجِدْ عَنْهُمْ «وَعَفَا اللَّهُ عَنْهُ».

وَأَمَّا آيَةُ الْمُحَارَبَةِ فَإِنَّمَا فِيهَا لَهُ عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ لَكِنْ عَلَى مَاذَا؟ فَلَيْسَ فِيهَا، وَنَحْنُ نَقُولُ بِهَا لَكِنْ عَلَى إِصْرَارِهِ وَعَدَمِ تَوْبَتِهِ لَا عَلَى ذَنْبٍ حُدَّ عَلَيْهِ لِمَا سَبَقَ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ: قَالَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ الْحُدُودُ كَفَّارَةٌ اسْتِدْلَالًا بِهَذَا الْحَدِيثِ يَعْنِي حَدِيثَ عِبَادَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ وَقَفَ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا أَذْرِي الْحُدُودَ كَفَّارَةً». كَذَا قَالَ وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ إِنْ صَحَّ فَمَا سَبَقَ أَصَحُّ مِنْهُ وَفِي هَذَا زِيَادَةٌ عِلْمٍ فَيَتَعَيَّنُ الْقَوْلُ بِهَا. اهـ



## ثالثاً: توبَةُ الكافر

يشترط لها قبل ما تقدم من الشروط الإسلام فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٣٢) [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وفي حديث النبي ﷺ: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ تَوْبَةَ عَبْدٍ أَشْرَكَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ» (٢١).

قال ابن كثير (٤/٤٨) في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]: أَيَّ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُشَاقَّةِ وَالْعِنَادِ وَيَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِنَابَةِ ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، أَيَّ مِنْ كُفْرِهِمْ، وَذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي وَائِلٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ» (٢٢) وفي

(٢١) أخرجه أحمد (٢٠٠٥٣)، عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢٢) أخرجه مسلم (١٢٠).

الصَّحِيحَ أَيضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْإِسْلَامُ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ وَالتَّوْبَةُ تُجِبُ مَا كَانَ قَبْلَهَا» (٣٣). اهـ

قال القرطبي رحمته الله في شرح حديث ابن مسعود الأنف الذكر كما في «المفهم» (٣٢٧/١): يعني بالإحسان هنا تصحيح الدخول في دين الإسلام والإخلاص فيه والدوام على ذلك من غير تبديل ولا ارتداد والإساءة المذكورة في هذا الحديث في مقابلة هذا الإحسان هي الكفر والنفاق ولا يصح أن يراد بالإساءة هنا ارتكاب سيئة ومعصية لأنه يلزم عليه أن لا يهدم الإسلام ما قبله من الآثام إلا لمن عصم من جميع السيئات إلى الموت وهو باطل قطعاً فتعين ما قلناه و المؤاخذه هنا هي العقاب على ما فعله من السيئات في الجاهلية وفي حال الإسلام وهو المعبر عنه في الرواية الأخرى بقوله: «أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ» وإنما كان كذلك لأن إسلامه لما يكن صحيحاً ولا خالصاً لله تعالى لم يهدم شيئاً مما سبق ثم أنضاف إلى ذلك إثم نفاقه وسيئاته التي عملها في حال الإسلام فاستحق العقوبة عليها. اهـ

(٢٣) قال الشيخ الألباني رحمته الله في «السلسلة الضعيفة» (١٤/٣) تحت رقم (١٠٣٩): لا أعرف له أصلاً. خلافاً لما يشعره صنع الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (٦) [مريم]... الخ.



### مسألة هل يقطع بقبول التوبة:

قال القرطبي رحمته الله في «المفهم» (٧١/٧): فتوبة الكافر عند موته مقطوع بقبولها وما عدها فمقبولة إن شاء الله بوعده الصدق وقوله الحق وأعني بالقبول: الخلاص من ضرر الذنوب حتى يرجع كمن لم يعمل ذنباً. اهـ

وقال النووي رحمته الله في «شرح على مسلم» (٦٠/١٧): ثُمَّ تَوْبَةُ الْكَافِرِ مِنْ كُفْرِهِ مَقْطُوعٌ بِقَبُولِهَا وَمَا سِوَاهَا مِنْ أَنْوَاعِ التَّوْبَةِ هَلْ قَبُولُهَا مَقْطُوعٌ بِهِ أَمْ مَظْنُونٌ فِيهِ خِلَافٌ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَاخْتَارَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ أَنَّهُ مَظْنُونٌ وَهُوَ الْأَصَحُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ

### مسألة توبة الكافر من المعاصي دون الكفر:

قال ابن مفلح رحمته الله في «الآداب الشرعية» (٩٣/١): وَلَا تَصِحُّ تَوْبَةُ كَافِرٍ مِنْ مَعْصِيَةٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رَوَايَةِ الْوَالِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الشَّرِّكَ عَمَلًا. وَقِيلَ: تَصِحُّ مِنْ غَيْرِ الْكُفْرِ بِالْقَوْلِ وَالنِّيَّةِ، وَمِنْهُ بِالْإِسْلَامِ، وَيُغْفَرُ لَهُ بِالْإِسْلَامِ الْكُفْرُ الَّذِي تَابَ مِنْهُ. اهـ

والذي يظهر والله أعلم عدم قبول توبة الكافر لأن التوبة عبادة والعبادة يشترط في قبولها الإسلام والإخلاص والمتابعة.

## مسألة توبة الكافر من الكفر دون المعاصي:

إذا اسلم الكافر وتاب من كفره دون ما كان يرتكب من المعاصي هل تغفر هذه الذنوب أم لا، قال ابن مفلح رحمته الله في «الآداب الشرعية» (١/٩٣-٩٤): وَهَلْ تُغْفَرُ لَهُ الذُّنُوبُ الَّتِي فَعَلَهَا فِي حَالِ الْكُفْرِ وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا فِي الْإِسْلَامِ؟ فِيهِ قَوْلَانِ مَعْرُوفَانِ.

قَالَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ: (أَحَدُهُمَا) يُغْفَرُ لَهُ الْجَمِيعُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، أَي: يَنْتَهُوا عَنْ كُفْرِهِمْ، وَلِأَنَّهُ أُنْدَرَجَ فِي ضَمَنِ الْمُحَرَّمَ الْأَكْبَرِ فَسَقَطَ بِسُقُوطِهِ وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّهُ يَنْدَرَجُ وَيَسْقُطُ مَعَ إِضْرَارِهِ عَلَيْهِ وَعَدَمِ تَوْبَتِهِ مِنْهُ؟ وَهَذَا ظَاهِرُ كَلَامِ أَكْثَرِ الْأَصْحَابِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَلَمْ أَجِدْهُ صَرِيحًا فِي كَلَامِهِمْ، وَقَدْ سَبَقَ كَلَامُ ابْنِ حَامِدٍ فِي الْفَضْلِ قَبْلَهُ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى الْغُفْرَانِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرِ الْخَبَرَ إِلَّا حُجَّةً لِمَنْ اعْتَبَرَ لِصِحَّةِ التَّوْبَةِ أَعْمَالًا صَالِحَةً، وَإِنَّهُ يَجِيءُ عَلَى مَقَالَةٍ بَعْضِ أَصْحَابِنَا فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَشْهَرَ خِلَافُهُ.

(وَالثَّانِي) لَا، نَقَلَهُ الْبَغَوِيُّ عَنْ أَحْمَدَ رَوَاهُ الْخَلَّالُ وَهُوَ ظَاهِرٌ مِمَّا اخْتَارَهُ ابْنُ عَقِيلٍ قَالَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ: وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي تَدُلُّ





عَلَيْهِ النُّقُولُ وَالنُّصُوصُ. وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، إِنَّهُ إِنْ تَابَ مِنْ جَمِيعِ مَعَاصِيهِ غُفِرَ لَهُ، وَإِنْ أَصَرَ عَلَيْهَا لَمْ يُغْفَرْ لَهُ.

وَإِنْ كَانَ ذَاهِلًا عَنِ الْإِضْرَارِ وَالْإِقْلَاعِ إِمَّا نَاسِيًا، أَوْ ذَاكِرًا غَيْرَ مُرِيدٍ لِلْفِعْلِ وَلَا لِلتَّرْكِ غُفِرَ لَهُ أَيْضًا وَالْحَدِيثَانِ يَأْتِلِفَانِ عَلَى هَذَا يَعْنِي حَدِيثَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَقَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ: «يَا عَمْرُو، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ.

وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، أَنَّ أَنَسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ أَخَذَ بِمَا عَمَلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَالَ: «أَمَّا مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الْإِسْلَامِ فَلَا يُؤَاخَذُ بِهَا، وَمَنْ أَسَاءَ أَخَذَ بِعَمَلِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ» قَالَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ: فَالْإِسْلَامُ لَتَضَمَّنِهِ التَّوْبَةُ الْمُطْلَقَةُ يُوجِبُ الْمُغْفِرَةَ الْمُطْلَقَةَ إِلَّا أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ مَا يُنَافِي هَذَا الْاِقْتِصَاءَ وَهُوَ الْإِضْرَارُ كَمَا أَنَّهُ يُوجِبُ الْإِيمَانَ الْمُطْلَقَ مَا لَمْ يُنَاقِضْهُ كُفْرٌ مُتَّصِلٌ، فَالْإِضْرَارُ فِي الذُّنُوبِ كَالْاِعْتِقَادِ فِي التَّصْدِيقِ انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَلِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ: هَذِهِ دَعَايُ تَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ وَالْأَصْلُ عَدَمُهُ بَلِ الْإِسْلَامُ إِنَّمَا يَتَضَمَّنُ التَّوْبَةَ مِنْ نَقِضِهِ وَهُوَ الشُّرْكُ، وَالْكَفْرُ لَا

تَوْبَةً مُطْلَقَةً، حَتَّى يُوجِبَ مَغْفِرَةً مُطْلَقَةً وَلَوْ تَصَمَّنَ تَوْبَةً مُطْلَقَةً فَإِنَّمَا يُوجِبُ مَغْفِرَةً مُطْلَقَةً، إِذَا لَمْ يَخْطُرْ بِيَالِهِ الْمُحَرَّمُ، أَمَّا إِذَا ذَكَرَهُ وَلَمْ يَتُبْ مِنْهُ بَلْ تَوَقَّفَ فِيهِ فَلَمْ يَنْدَمْ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُقْلَعْ عَنْهُ فَكَيْفَ يَسْقُطُ؟

يُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّهُ قَالَ: كَمَا أَنَّهُ يُوجِبُ الْإِيْمَانَ الْمُطْلَقَ. وَهَذَا يَكْفِي إِذَا لَمْ يَخْطُرْ بِيَالِهِ بَعْضُ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ فَلَوْ ذَكَرَهُ وَتَوَقَّفَ فِيهِ وَلَمْ يَتُبْ مِنْهُ كَانَ ذَلِكَ مَانِعًا عَنْ عَمَلِ الْمُقْتَضِي عَمَلَهُ، فَلَا أَثَرَ لِلْفَرْقِ بَأَنَّ الْمَانِعَ هُنَا رَفَعَ عَمَلِ الْمُقْتَضِي بِالْكُلِّيَّةِ وَهُنَاكَ لَمْ يَرْفَعْهُ مُطْلَقًا فَلَيْسَ هُوَ نَظِيرُهُ؛ لِأَنَّ الْمُقْصُودَ تَأْثِيرُ التَّوَقُّفِ فِي الْأَمْرِ الْخَاصِّ وَهَذَا حَاصِلٌ، وَهَذَا مُتَوَجِّهٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ الْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ: فَإِلَاسْلَامٌ لَتَصَمَّنِهِ التَّوْبَةُ الْمُطْلَقَةُ يُوجِبُ الْمَغْفِرَةَ إِلَّا أَنْ يَقْتَرِنَ بِهَا مَا يُنَافِي هَذَا الْإِقْتِضَاءَ وَهُوَ تَوَقُّفُهُ فِي بَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ عِنْدَ ذِكْرِهَا فَلَمْ يَنْدَمْ وَلَمْ يُقْلَعْ، كَمَا أَنَّ الْإِسْلَامَ يُوجِبُ الْإِيْمَانَ الْمُطْلَقَ مَا لَمْ يُنَاقِضْهُ تَوَقُّفٌ فِي بَعْضِ الْمُكْفَرَاتِ عِنْدَ ذِكْرِهَا فَلَمْ يَنْدَمْ وَلَمْ يُقْلَعْ، وَيَكُونُ هَذَا دَلِيلًا لِلْقَوْلِ الثَّانِي وَمُوَافِقًا لِقَوْلِ الشَّيْخِ تَقِي الدِّينِ إِنَّهُ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ الْأُصُولُ هَذَا إِنْ ثَبَتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَتَصَمَّنُ تَوْبَةً مُطْلَقَةً وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ. اهـ



## رابعاً: توبة المنافق

يشترط لها ما تقدم من الشروط في توبة العبد فيما بينه وبين الله ﷻ وكذلك ما في شروط توبة الكافر مع زيادة ما ذكر الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَفِيقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ [النساء].

**دلت الآية على أن توبة المنافق لها شروط زائدة على ما تقدم منها:**

- الإصلاح في القول والفعل والمعتقد.
- الاعتصام بالله ﷻ وجعله ملجأ وملاذ له.
- الإخلاص في أقواله وأعماله لله ﷻ.

قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» (٤٤٢/٢): ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا تَابَ عَلَيْهِ وَقَبِلَ نَدَمَهُ إِذَا أَخْلَصَ فِي تَوْبَتِهِ وَأَصْلَحَ عَمَلَهُ، وَاعْتَصَمَ بِرَبِّهِ فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أَي: بَدَّلُوا

الرِّيَاءَ بِالْإِخْلَاصِ، فَيَنْفَعُهُمُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ... ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: فِي زُمْرَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. اهـ

والنفاق والعياذ بالله قد استجرى في كثير ممن يتقمص بالإسلام في هذه الأيام من اشتراكيين، وبعثيين، وناصرين، وحدائيين، وديمقراطيين، وماسونيين، وغيرهم، من أفراخ الكافرين، والملحدين، والمستشرقين، فمن تمام توبتهم التبرؤ من هذه المذاهب الهدامة والأفكار المنحرفة والآراء الزائفة والعودة إلى الكتاب والسنة علماً وعملاً ومعتقداً والبعد كل البعد عن موالاة الزائغين والمنحرفين، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة]، ويجب على المسلمين أن يتبرءوا ممن كان هذا حاله ولا يصاحبونهم ولا يجالسونهم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ؕ أُرِيدُ أَن تَبْغَضُوا إِلَّاهُ عَلَيْهِ سُلْطَانُنَا

مُبِينًا﴾ [النساء]



أي حجة عليكم في عقوبته لكم ثم أخبر بعد ذلك عن حال من يوالي الكافرين ولاء محبة وإخاء وصفاء ﴿٨﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿٩﴾ [النساء]

وقال تعالى في بيان ما هم عليه ﴿٨﴾ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِتِمْنَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٥﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رِيحَتْ بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٧﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾ صُمُّ بَكْمٌ عَمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٩﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ

يَكَادُ الْبَرُّ يُخْطَفُ أَبْصَرُهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ [البقرة]

قال السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات (٤٢-٤٤):

واعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي، كالذي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ» وفي رواية: «وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو: الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجودا قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة «بدر» وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذل من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفا ومخادعة، ولتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.



فمن لطف الله بالمؤمنين، أن جلا أحوالهم ووصفهم بأوصاف يتميزون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقمعوا أيضا عن كثير من فجورهم، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] فوصفهم الله بأصل النفاق فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان الحقيقي، ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

**والمخادعة:** أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئا، ويبطن خلافه لكي يتمكن من مقصوده ممن يخادع، فهؤلاء المنافقون، سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، فإن هذا من العجائب؛ لأن المخادع، إما أن ينتج خداعه ويحصل له ما يريد أو يسلم، لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكأنهم يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم شيئا وعباده المؤمنون، لا يضرهم كيدهم شيئا، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان،

فسلمت بذلك أموالهم وحقنت دماءهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة.

ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجه المفجع، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من جهلهم وحماقتهم لا يشعرون بذلك.

**وقوله:** ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة: ١٠] والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، لأن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا، ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها، من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢] وهي شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فرفل في أثواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠] بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين،





وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَّتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] فعقوبة المعصية، المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾  
 ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ [البقرة].

أي: إذا نهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلبا للحقائق، وجمعا بين فعل الباطل واعتقاده حقا، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ حصر للإصلاح في جانبهم - وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فإنه لا أعظم فساداً ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخادع الله وأوليائه، ووالى المحاريين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد؟ ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفساداً، لأنه يتضمن فساد ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار، والنبات، بما يحصل فيها من الآفات بسبب المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدر لهم الأرزاق، ليستعينوا بها على طاعته وعبادته، فإذا عمل فيها بضده، كان سعيها بالفساد فيها، وإخراها لها عما خلقت له.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة).



**أي:** إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهو الإيـان بالقلب واللسان، قالوا بزعمهم الباطل: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم، بزعمهم أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبوهـم إلى السفه؛ وفي ضمنه أنهم هم العقلاء أرباب الحجى والنهى.

فرد الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن حقيقة السفه جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم وصادقة عليهم، كما أن العقل والحجا، معرفة الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما ينفعه، وفي دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على الصحابة والمؤمنين وصادقة عليهم، فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوى المجردة، والأقوال الفارغة. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ۗ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۗ﴾ [البقرة].

هذا من قولهم بألستهم ما ليس في قلوبهم، وذلك أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين، أظهروا أنهم على طريقتهم وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي: رؤسائهم وكبرائهم في الشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن مستهزئون بالمؤمنين بإظهارنا لهم، أنا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذا جزاء لهم، على استهزائهم بعباده، فمن استهزأه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزأه بهم يوم القيامة، أنه يعطيهم مع المؤمنين نورا ظاهرا، فإذا مشى المؤمنون بنورهم، طفى نور المنافقين، وبقوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع، ﴿يَنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنَّا أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ [الحديد: ١٤] الآية.

**قول:** ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي: يزيدهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: فجورهم وكفرهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: حائرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.



ثم قال تعالى كاشفا عن حقيقة أحوالهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

(أولئك)، أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات ﴿الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي: رغبوا في الضلالة، رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان النفيسة. وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة، التي هي غاية الشر، كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبة عنه بالضلالة رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وبئس الصفقة صفقتهم.

وإذا كان من بذل دينارا في مقابلة درهم خاسرا، فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهما؟ فكيف من بذل الهدى في مقابلة الضلالة، واختار الشقاء على السعادة، ورغب في سافل الأمور عن عاليها؟ فما ربحت تجارتها، بل خسر فيها أعظم خسارة ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٤].

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ تحقيق لضلالهم، وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شيء، فهذه أوصافهم القبيحة.

ثم ذكر مثلهم الكاشف لها غاية الكشف، فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧) ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْـِٔعَهُمْ فِيءَآذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩) ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا لِلَّهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠) [البقرة].

أي: مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوقد نارا، أي: كان في ظلمة عظيمة، وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده معدة، بل هي خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك، إذ ذهب الله بنوره، فذهب عنه النور، وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة، فذهب ما فيها



من الإشراق، وبقي ما فيها من الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ، اسْتَوْقَدُوا نَارَ الْإِيمَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمْ تَكُنْ صِفَةً لَهُمْ، فَانْتَفَعُوا بِهَا وَحَقَّنْتَ بِذَلِكَ دِمَاؤَهُمْ، وَسَلَّمْتَ أَمْوَالَهُمْ، وَحَصَلَ لَهُمْ نَوْعٌ مِنَ الْأَمْنِ فِي الدُّنْيَا، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ هَجَمَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ، فَسَلَبَهُمُ الْإِنْتِفَاعَ بِذَلِكَ النُّورِ، وَحَصَلَ لَهُمْ كُلُّ هُمْ وَغَمٍ وَعَذَابٍ، وَحَصَلَ لَهُمْ ظِلْمَةُ الْقَبْرِ، وَظِلْمَةُ الْكُفْرِ، وَظِلْمَةُ النِّفَاقِ، وَظَلَمَ الْمَعَاصِي عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ ظِلْمَةُ النَّارِ وَبُئْسَ الْقَرَارُ.

فلهذا قال تعالى عنهم: ﴿صُمُّ أَي: عَنْ سَمَاعِ الْخَيْرِ، بُكْمٌ أَي: عَنِ النُّطْقِ بِهِ، عُمَى عَنِ رُؤْيَا الْحَقِّ، فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا الْحَقَّ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوهُ، فَلَا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، بِخِلَافِ مَنْ تَرَكَ الْحَقَّ عَنْ جَهْلٍ وَضَلَالٍ، فَإِنَّهُ لَا يَعْقِلُ، وَهُوَ أَقْرَبُ رَجُوعًا مِنْهُمْ.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: أَوْ مِثْلَهُمْ كَصَيْبٍ، أَي: كصاحب صيب من السماء، وهو المطر الذي

يصوب، أي: ينزل بكثرة، ﴿فِيهِ ظُلُمْتُ﴾ ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمات المطر، ﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب، ﴿وَبَرْقٌ﴾ وهو الضوء اللامع المشاهد مع السحاب.

﴿كَلَّمَ أَضَاءَ لَهُمْ﴾ البرق في تلك الظلمات ﴿مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي: وقفوا.

فهكذا حال المنافقين، إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه ووعدته ووعيده، جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه ووعدته ووعيده، فيروعههم وعيده وتزعجهم وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد، ويجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت، فهذا تمكن له السلامة. وأما المنافقون فأنى لهم السلامة، وهو تعالى محيط بهم، قدرة وعلماً فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها أتم الجزاء.

ولما كانوا مبتلين بالصمم، والبكم، والعمى المعنوي، ومسدودة عليهم طرق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ أي: الحسية، ففيه تحذير لهم وتخويف





بالعقوبة الدنيوية، ليحذروا، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٠) فلا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئاً فعله من غير ممانع ولا معارض. اهـ

أسأل الله السلامة والعافية.

استطردت هذا الاستطراد لكثرة المنافقين في هذا الزمان وكونهم أضر على الإسلام وأهله من اليهود والنصارى ولتنوع طرقهم فتارة يظهرون في الإسلام باسم الإسلام، وتارة باسم الحداثة، وقد ظهروا في القدم باسم الرافضة والباطنية وما زالوا وهلم جر ولا سبيل لمعرفةهم والخلاص منهم إلا بالاعتصام بالكتاب والسنة وطلب العلم النافع والدعوة إلى الله ﷻ بعلم وبصيرة قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨)، والعودة إلى فهم الكتاب والسنة على طريقة سلف الأمة الذين أثنى الله على طريقتهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٩) وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمَنْ

أَهْلَ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوْا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعْدِيهِمْ  
مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرْدُوْنَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ [التوبة].

وعلى المسلمين أن يعودوا إلى رشدهم ويراجعوا دينهم كما  
تقدم علماً وعملاً واعتصاماً وعليهم تحقير الكافرين والمنافقين  
والذين سباهم الله ب ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ [الأنفال: ٢٢] ووصفهم  
بأنهم كالأنعام بل هم أضل.

### القول في توبة الزنديق:

وقد اختلفوا في توبة الزنادقة - أي المنافقين - إلى قولين  
مشهورين ذكرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «المجموع»  
(١١٠/٣٥)، فقال: الْعُلَمَاءُ هُمْ قَوْلَانِ فِي الزَّنْدِيقِ إِذَا أَظْهَرَ التَّوْبَةَ:  
هَلْ تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ فَلَا يُقْتَلُ؟ أَمْ يُقْتَلُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ صِدْقَهُ؛ فَإِنَّهُ مَا زَالَ  
يُظْهَرُ ذَلِكَ؟ فَأَفْتَى طَائِفَةٌ بِأَنَّهُ يُسْتَتَابُ فَلَا يُقْتَلُ وَأَفْتَى الْأَكْثَرُونَ  
بِأَنَّهُ يُقْتَلُ وَإِنْ أَظْهَرَ التَّوْبَةَ. اهـ.

وقال الألويسي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره روح المعاني» (١٥٧/١):  
ولما طلب من المنافق الإيمان دل ذلك على قبول توبة الزنديق. اهـ  
وفي «تفسير الرازي» (٤٨٢/١٥) قال: الْمُسْأَلَةُ الثَّلَاثَةُ:  
اِخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي أَنَّ تَوْبَةَ الزَّنْدِيقِ هَلْ تُقْبَلُ أَمْ لَا؟ وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا



مَقْبُولَةٌ لَوْجُوهٍ: الْأَوَّلُ: هَذِهِ الْآيَةُ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ  
كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]  
يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ.

فَإِنْ قِيلَ: الزَّنْدِيقُ لَا يُعْلَمُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ هَلِ انْتَهَى مِنْ زَنْدَقِيَّةٍ  
أَمْ لَا؟

قُلْنَا: أَحْكَامُ الشَّرْعِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الظَّوَاهِرِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:  
«نَحْنُ نَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ»

فَلَمَّا رَجَعَ وَجَبَ قَبُولُ قَوْلِهِ فِيهِ. الثَّانِي: لَا شَكَّ أَنَّهُ مُكَلَّفٌ  
بِالرَّجُوعِ وَلَا طَرِيقَ لَهُ إِلَيْهِ إِلَّا بِهَذِهِ التَّوْبَةِ فَلَوْ لَمْ تُقْبَلْ لَزِمَ تَكْلِيفُ  
مَا لَا يُطَاقُ. الثَّلَاثُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ  
وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]. اهـ.

قال ابن عادل في «تفسير اللباب» (٨ / ١٥٩): قال تعالى:  
﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾  
[الأنفال: ٣٨]، المعنى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا عَنْ الْكُفْرِ  
وَعَدَاوَةِ الرُّسُولِ وَيَسْلَمُوا ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من كفرهم  
وَعَدَاوَتِهِم لِلرُّسُولِ، وَإِنْ عَادُوا إِلَيْهِ، وَأَصْرُوا عَلَيْهِ: ﴿فَقَدْ

مَضَتْ سُنْتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فِي نُصْرَةِ اللَّهِ أَنْبِيَاءِهِ، أَوْلِيَاءِهِ،  
وإِهْلَاكِ أَعْدَاءِهِ ؛ فَلْيَتَوَقَّعُوا مِثْلَ ذَلِكَ.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: توحيد ساعة لم يعجز عن هدم ما  
قبله من كُفْرٍ، وأرجو ألاَّ يعجز عن هدم ما بعده من ذنب.  
واستدلُّوا بهذه الآية على صحَّة توبة الزَّنديق، وأنها تقبل. اهـ

قال الشنقيطي رحمته الله في «دفع إيهام الاضطراب عن آيات  
الكتاب» (٤٩):

فَاعْلَمْ أَنَّ مُرَادَ الْفَائِلِينَ أَنَّهُ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ، أَنَّ أَفْعَالَهُ دَالَّةٌ عَلَى  
خُبْثِ نِيَّتِهِ وَفَسَادِ عَقِيدَتِهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ تَائِبًا فِي الْبَاطِلِ تَوْبَةً نَصُوحًا  
فَهُمْ مُوَافِقُونَ عَلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحِ مَنَاطِ الْقَبُولِ كَمَا ذَكَرْنَا، وَلَكِنْ  
يَقُولُونَ أَفْعَالُ هَذَا الْحَبِيثِ دَلَّتْ عَلَى عَدَمِ تَحْقِيقِ الْمَنَاطِ. وَمِنْ هُنَا  
اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَوْبَةِ الزَّنديقِ أَعْنِي الْمُسْتَسْرِ بِالكُفْرِ:

فَمِنْ قَائِلٍ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ.

وَمِنْ قَائِلٍ تُقْبَلُ.

وَمِنْ مُفَرِّقٍ بَيْنَ إِيْتَانِهِ تَائِبًا قَبْلَ الْإِطْلَاعِ عَلَيْهِ وَيَنْ الْإِطْلَاعِ  
عَلَى نِفَاقِهِ قَبْلَ التَّوْبَةِ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي فُرُوعِ مَذَاهِبِ الْأَئِمَّةِ  
الْأَرْبَعَةِ.



لِأَنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ يُقْتَلُ وَلَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ يَرَوْنَ أَنَّ نِفَاقَهُ الْبَاطِلَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَوْبَتَهُ نَقِيَّةٌ لَا حَقِيقَةَ وَاسْتَدْلُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾.

فَقَالُوا: الْإِصْلَاحُ شَرْطٌ وَالزَّنْدِيقُ لَا يُطْلَعُ عَلَى إِصْلَاحِهِ، لِأَنَّ الْفَسَادَ إِنَّمَا أَتَى مِمَّا أَسْرَهُ فَإِذَا أُطْلِعَ عَلَيْهِ وَأُظْهِرَ الْإِقْلَاعَ لَمْ يَزَلْ فِي الْبَاطِنِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ أَدْلَةَ الْقَائِلِينَ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ مُطْلَقًا أَظْهَرُ وَأَقْوَى، كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ، وَقَوْلِهِ لِلَّذِي سَارَهُ فِي قَتْلِ رَجُلٍ قَالَ: أَلَيْسَ يُصَلِّي؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ نُهَيْتُ عَنْ قَتْلِهِمْ، وَقَوْلِهِ لِحَالِدٍ لَمَّا اسْتَأْذَنَهُ فِي قَتْلِ الَّذِي أَنْكَرَ الْقِسْمَةَ: إِنِّي لَمْ أَوْمَرْ بِأَنْ أُنْقَبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ فِي الصَّحِيحِ وَيَذُلُّكَ لِذَلِكَ أَيْضًا إِجْمَاعُهُمْ عَلَى أَنَّ أَحْكَامَ الدُّنْيَا عَلَى الظَّاهِرِ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ.

وَقَدْ نَصَّ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ الْكَاذِبَةَ جُنَّةٌ لِلْمُنَافِقِينَ فِي الْأَحْكَامِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿اتَّخِذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: ٩٥]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَيَحْلِفُونَ

يَا اللَّهُ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ❀ [التوبة: ٥٦]. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ  
الآيَاتِ.

وَمَا اسْتَدَلَّ بِهِ بَعْضُهُمْ مِنْ قَتْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ لِابْنِ النَّوَاحِ  
صَاحِبِ مُسَيْلِمَةَ فَيَجَابُ عَنْهُ بِأَنَّهُ قَتَلَهُ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ حِينَ جَاءَهُ رَسُولًا لِمُسَيْلِمَةَ: لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكَ  
فَقَتَلَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَتَلَهُ لِذَلِكَ فَإِنْ قِيلَ هَذِهِ الْآيَةُ الدَّالَّةُ عَلَى عَدَمِ  
قَبُولِ تَوْبَتِهِمْ أَخْصُ مِنْ غَيْرِهَا لِأَنَّ فِيهَا الْقَيْدَ بِالرَّدَّةِ وَازْدِيَادِ  
الْكُفْرِ، فَالَّذِي تَكَرَّرَتْ مِنْهُ الرَّدَّةُ أَخْصُ مِنْ مُطْلَقِ الْمُرْتَدِّ، وَالذَّلِيلُ  
عَلَى الْأَعْمَ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى الْأَخْصِ لِأَنَّ وُجُودَ الْأَعْمَ لَا يَسْتَلْزِمُ  
وُجُودَ الْأَخْصِ.

فَالْجَوَابُ أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى قَبُولِ تَوْبَةٍ مَنْ تَكَرَّرَ مِنْهُ الْكُفْرُ،  
إِذَا أَخْلَصَ فِي الْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ، وَوَجْهُ دَلَالَةِ الْقُرْآنِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ  
تَعَالَى قَالَ: ❀ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ  
ءَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ❀ (١٣٧)  
[النساء].



ثُمَّ يَبَيِّنُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ دَاخِلُونَ فِيهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ  
 الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨) ﴿[النساء]. وَدَلَالَةُ الْإِقْتِرَانِ وَإِنْ  
 ضَعَّفَهَا الْأُصُولِيُّونَ فَقَدْ صَحَّحَتْهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ، وَلَا سِيَّامَا  
 إِذَا اعْتَصَدَتْ بِالْأَدِلَّةِ الْقَرِينَةُ عَلَيْهَا كَمَا هُنَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنْ  
 اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (١٣٧) ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا  
 أَلِيمًا﴾ (١٣٨) ﴿[النساء] فِيهِ الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ عَلَى دُخُولِهِمْ فِي الْمُرَادِ  
 بِالْآيَةِ، بَلْ كَوْنُهَا فِي خُصُوصِهِمْ قَالَ بِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ. اهـ

## خامسا: توبَةُ المبتدِع

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَٰئِكَ أَثُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة]

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية (٣٤٢/١): هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَتَمَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مِنَ الدَّلَالَاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ، وَاهْدَى النَّافِعَ لِلْقُلُوبِ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ مِنْ كُتْبِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ. اهـ

**قلت:** وهذا هو ما جاء به الرسول ﷺ أما بعد بث العلم بين الناس لعلمهم أنه يقوض ما هم عليه من الباطل أو بكتم المعاني الحقة التي هي المرادة من الكتاب والسنة إلى معاني غير مراده وليس فيها ثمت هداية للمجتمع وإنما فيها البعد عن علم الكتاب والسنة والهدى النافع للقلوب وأهل البدع ضررهم على الدين غير خاف على كثير من المستبصرين.

**والبدعة:** هِيَ الدِّينَ الَّذِي لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ فَمَنْ دَانَ دِينًا لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهِ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ بِذَلِكَ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى





﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، انتهى من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الاستقامة» (٥/١).

وقال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الاعتصام» (٤٧/١): طَرِيقَةُ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٌ، تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ، يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا مَا يُقْصَدُ بِالطَّرِيقَةِ الشَّرْعِيَّةِ. اهـ

**والبدعة سبب لموت القلوب وغفلتها** وقسوتها وأصحابها أبعد الناس وأزهدهم في السنن والآثار وأبتعهم لأهوائهم والشيطان. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «اجتماع الجيوش» (٣٩/٢): فَصَاحِبُ السُّنَّةِ: حَيُّ الْقَلْبِ، مُسْتَنِيرُ الْقَلْبِ، وَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ: مَيِّتُ الْقَلْبِ مُظْلِمُهُ. اهـ

**وهي باب الشرك**، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إغاثة اللفهان» (٦٣/١): ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب الله قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا

نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾ [الأعراف] فالإثم والبغي قرينان والشرك والبدعة قرينان. اهـ

**وخطر المبتدع على الدين وضرره أعظم ضررا من مرتكبي الكبائر**

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «الداء والدواء» (٣٣١-٣٣٢):  
وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُذْنِبَ إِنَّمَا ضَرَرُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَمَّا الْمُبْتَدِعُ فَضَرَرُهُ عَلَى  
النَّوعِ، وَفِتْنَةُ الْمُبْتَدِعِ فِي أَصْلِ الدِّينِ، وَفِتْنَةُ الْمُذْنِبِ فِي الشَّهْوَةِ،  
وَالْمُبْتَدِعُ قَدْ قَعَدَ لِلنَّاسِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ يَصُدُّهُمْ عَنْهُ،  
وَالْمُذْنِبُ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَالْمُبْتَدِعُ قَادِحٌ فِي أَوْصَافِ الرَّبِّ وَكَمَالِهِ،  
وَالْمُذْنِبُ لَيْسَ كَذَلِكَ. **والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول ﷺ،**  
والعاصي ليس كذلك.

**وَالْمُبْتَدِعُ يَقْطَعُ عَلَى النَّاسِ طَرِيقَ الْآخِرَةِ، وَالْعَاصِي بَطِيءٌ**  
السَّيْرِ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِ، والمبتدع يشرع في الدين ما لم يأذن به الله  
والعاصي ليس كذلك، والمبتدع يرى فعله دينا والعاصي ليس  
كذلك، إلى غير ذلك. اهـ

**ولما كان الأمر على ما ذكر فإن لتوبة المبتدع شروط زائدة على**

**ما تقدم.**



قال ابن مفلح رحمته الله في «الآداب الشرعية» (١/١٠٩): وَمَنْ تَابَ مِنْ بِدْعَةٍ مُفْسِقَةٍ أَوْ مُكْفَرَةٍ صَحَّ إِنْ اعْتَرَفَ بِهَا وَإِلَّا فَلَا. قَالَ فِي الشَّرْحِ: فَأَمَّا الْبِدْعَةُ فَالتَّوْبَةُ مِنْهَا بِالْاعْتِرَافِ بِهَا وَالرُّجُوعِ عَنْهَا وَاعْتِقَادِ ضِدِّ مَا كَانَ يُعْتَقَدُ مِنْهَا. اهـ

وقال رحمته الله (١/١١٠): قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ فِي الْإِرْشَادِ الرَّجُلُ إِذَا دَعَا إِلَى بِدْعَةٍ ثُمَّ نَدِمَ عَلَى مَا كَانَ وَقَدْ ضَلَّ بِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَتَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ وَمَاتُوا فَإِنْ تَوْبَتُهُ صَحِيحَةٌ إِذَا وَجَدْتَ الشَّرَائِطَ وَيَجُوزُ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ وَيَقْبَلَ تَوْبَتَهُ وَيُسْقِطَ ذَنْبَ مَنْ ضَلَّ بِهِ بِأَنْ يَرْحَمَهُ وَيَرْحَمَهُمْ. اهـ

ونقل رحمته الله غير ذلك وهو: أَنْ تَوْبَتُهُ صَحِيحَةٌ لَكِنْ تَبْقَى حَقُوقُ الْآدَمِيِّينَ لَا تَسْقُطُ فَيَكُونُ مَازُورًا بِضِلَالَتِهِمْ وَهُمْ مَازُورُونَ بِأَفْعَالِهِمْ. اهـ

وقال ابن القيم رحمته الله في «عدة الصابرين» (٥): ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة وأن الهدى في ضده كما شرط تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من بينات والهدى ليضلوا الناس بذلك

أَنْ يَصْلَحُوا الْعَمَلَ فِي نَفْسِهِمْ وَيُبَيِّنُوا لِلنَّاسِ مَا كَانُوا يَكْتُمُونَهُمْ  
إِيَّاهُ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ  
مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾  
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ  
الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة].

وهذا كما شرط في توبة المنافقين الذين كان بذنبهم إفساد  
قلوب ضعفاء المؤمنين وتحيزهم واعتصامهم باليهود والمشركين  
أعداء الرسول ﷺ وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة أن يصلحوا  
بدل إفسادهم أن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالكفار من أهل  
الكتاب والمشركين وأن يخلصوا دينهم له بدل إظهارهم رياء  
وسمعة فهكذا نفهم شرائط التوبة وحقيقتها، والله المستعان. اهـ

### القول في قبول توبة المبتدع من عدمها:

#### واعلم أن للعلماء قولين في قبول توبة المبتدع من عدمها:

**الأول:** قول جماهير العلماء بقبول توبة المبتدع لعموم أدلة قبول  
التوبة إذا توفرت فيها الشرائط منها قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي  
الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ  
جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]



ومنها قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٣) ﴿غافر﴾

ومنها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨) ﴿النساء﴾ ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١١) ﴿التوبة﴾.

**والقول الثاني:** ذهب مجموعة من السلف إلى عدم قبول توبة المبتدع واستدلوا بما أخرجه ابن عاصم في السنة (٢١)، وصححه الألباني (٢٤) رحمهما الله، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ اللَّهُ حَجَزَ - أَوْ قَالَ: حَجَبَ - التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ»، ومثل حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري (٧٥٦٢) واللفظ له، ومسلم (١٠٦٤) وفيه عن الخوارج «يَمُرُّونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمُرُّ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ» قالوا: وقوله: (ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ) دليل على عدم توبتهم ومن في حكمهم من أهل البدع ومما روي عن السلف في ذلك قول الحُسن البصري:

أَبَى اللَّهُ لِصَاحِبِ بِدْعَةٍ بِتَوْبَةٍ، أخرجَه ابن وضاح رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْبَدْعِ وَالنَهْيِ عَنْهَا» (١٤٥)، وَقَوْلَ عَطَاءٍ الْخُرَّاسَانِيِّ عِنْدَ اللَّالِكَائِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ (١/١٥٩): مَا يَكَاذُ اللَّهُ أَنْ يَأْذَنَ لِصَاحِبِ بِدْعَةٍ بِتَوْبَةٍ، وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِيِّ نَحْوَهُ عِنْدَ ابْنِ وَضَاحٍ فِي «الْبَدْعِ وَالنَهْيِ عَنْهَا» (١٤١)، وَقَوْلَ سَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ عِنْدَ اللَّالِكَائِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ (١/١٥٤): الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ عِنْدَنَا عَلَى حَالَةٍ حَسَنَةٍ إِلَّا رَجُلَيْنِ: صَاحِبَ بِدْعَةٍ، أَوْ صَاحِبَ سُلْطَانٍ، وَغَيْرِهِ: الْبَدْعَةُ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَالْمَعْصِيَةُ يَتَابُ مِنْهَا وَالْبَدْعَةُ لَا يَتَابُ مِنْهَا.

وَقَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْإِعْتَصَامِ» (١/١٤١): فَاعْلَمُوا أَنَّ الْبِدْعَةَ لَا يُقْبَلُ مَعَهَا عِبَادَةٌ مِنْ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَا صَدَقَةٍ... وَلَيْسَ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْضًا (٢/٧٧٨-٧٨٣): مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تُجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ»، الْمُسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ:



فِي بَيَانٍ مَعْنَى رَوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ وَهِيَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:  
«وَأِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تُجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى  
الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ».

وَذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخْبَرَ بِمَا  
سَيَكُونُ فِي أُمَّتِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ الَّتِي افْتَرَقُوا فِيهَا إِلَى تِلْكَ الْفِرَقِ،  
وَأَنَّهُ يَكُونُ فِيهِمْ أَقْوَامٌ تَدْخُلُ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ قُلُوبَهُمْ حَتَّى لَا يُمَكِّنَ  
فِي الْعَادَةِ انفِصَالُهَا عَنْهَا وَتَوْبَتُهُمْ مِنْهَا، عَلَى حَدِّ مَا يُدْخِلُ دَاءَ  
الْكَلْبِ جِسْمَ صَاحِبِهِ فَلَا يَبْقَى مِنْ ذَلِكَ الْجِسْمِ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَائِهِ  
وَلَا مَفْصِلٌ وَلَا غَيْرُهُمَا إِلَّا دَخَلَهُ ذَلِكَ الدَّاءُ، وَهُوَ جَرِيَانٌ لَا يَقْبَلُ  
الْعِلَاجَ وَلَا يَنْفَعُ فِيهِ الدَّوَاءُ، فَكَذَلِكَ صَاحِبُ الْهَوَى إِذَا دَخَلَ  
قَلْبَهُ، وَأَشْرَبَ حُبَّهُ، لَا تَعْمَلُ فِيهِ الْمُوعِظَةُ وَلَا يَقْبَلُ الْبُرْهَانُ، وَلَا  
يَكْتَرِثُ بِمَنْ خَالَفَهُ. وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ  
كَمَعْبِدِ الْجُفْهَنِيِّ وَعَمْرٍو وَبْنِ عُبَيْدٍ وَسَوَاهِمَا، فَإِنَّهُمْ كَانُوا حَيْثُ لَقُوا  
مَطْرُودِينَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، مُحْجُوبِينَ عَنْ كُلِّ لِسَانٍ، مُبْعَدِينَ عِنْدَ كُلِّ  
مُسْلِمٍ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَزِدَادُوا إِلَّا تَمَادِيًا عَلَى ضَلَالِهِمْ، وَمُدَاوِمَةً عَلَى  
مَا هُمْ عَلَيْهِ ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ  
شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١].

وَحَاصِلُ مَا عَوَّلُوا عَلَيْهِ تَحْكِيمُ الْعُقُولِ الْمُجَرَّدَةِ، فَشَرَّكُوهَا مَعَ الشَّرْعِ فِي التَّحْسِينِ وَالتَّقْيِيحِ. ثُمَّ قَصَرُوا أَفْعَالَ اللَّهِ عَلَى مَا ظَهَرَ لَهُمْ وَوَجَّهُوا عَلَيْهَا أَحْكَامَ الْعَقْلِ فَقَالُوا: يَجِبُ عَلَى اللَّهِ كَذَا وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا. فَجَعَلُوهُ مُحْكُومًا عَلَيْهِ كَسَائِرِ الْمُكَلَّفِينَ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ هَذَا الْمِقْدَارَ، بَلِ اسْتَحْسَنَ شَيْئًا يَفْعَلُهُ وَاسْتَقْبَحَ آخَرَ وَالْحَقَّهَا بِالْمَشْرُوعَاتِ، وَلَكِنَّ الْجَمِيعَ بَقُوا عَلَى تَحْكِيمِ الْعُقُولِ، وَلَوْ وَقَفُوا هُنَالِكَ لَكَانَتْ الدَّاهِيَةُ عَلَى عَظَمِهَا أَيْسَرَ، وَلَكِنَّهُمْ تَجَاوَزُوا هَذِهِ الْحُدُودَ كُلَّهَا إِلَى أَنْ نَصَبُوا الْمُحَارَبَةَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، بِاعْتِرَاضِهِمْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَادَّعَائِهِمْ عَلَيْهِمَا مِنَ التَّنَاقُضِ وَالِاخْتِلَافِ وَمُنَافَاةِ الْعُقُولِ وَفَسَادِ النَّظْمِ مَا هُمْ لَهُ أَهْلٌ.

قَالَ الْعُنَيُّ: وَقَدْ اعْتَرَضَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى بِالطَّعْنِ مُلْحِدُونَ، وَلَغُوا وَهَجَرُوا، وَاتَّبَعُوا مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، بِأَفْهَامٍ كَلِيلَةٍ، وَأَبْصَارٍ عَلِيلَةٍ، وَنَظَرٍ مَدْخُولٍ، فَحَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَعَدَّلُوا بِهِ عَنْ سَبِيلِهِ، ثُمَّ قَضَوْا عَلَيْهِ بِالتَّنَاقُضِ وَالِاسْتِحَالَةِ وَاللَّحْنِ، وَفَسَادِ النَّظْمِ وَالِاخْتِلَافِ، وَأَدْلَوْا بِذَلِكَ بَعْلَلٍ رُبَّمَا أَمَالَتِ الضَّعِيفُ الْغُمَرُ، وَالْحَدِيثُ الْغُرَّ، وَاعْتَرَضَتْ بِالشُّبْهَةِ فِي الْقُلُوبِ، وَقَدَحَتْ بِالشُّكُوكِ فِي الصُّدُورِ.





قَالَ: وَلَوْ كَانَ مَا لَحَنُوا إِلَيْهِ عَلَى تَقْرِيرِهِمْ وَتَأْوِيلِهِمْ لَسَبَقَ إِلَى الطَّعْنِ فِيهِ مَنْ لَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْتَجُّ بِالْقُرْآنِ عَلَيْهِمْ، وَيَجْعَلُهُ عِلْمَ بَيِّنَاتِهِ، وَالِدَلِيلَ عَلَى صِدْقِهِ، وَيَتَحَدَّاهُمْ فِي مُوَاطِنَ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَهُمْ الْفُصَحَاءُ وَالْبُلَغَاءُ، وَالْخُطَبَاءُ وَالشُّعْرَاءُ، وَالْمُخْصُوصُونَ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْأَنَامِ، وَبِالْأَلْسِنَةِ الْحَدَادِ وَاللِّدْدِ فِي الْخِصَامِ، مَعَ اللَّبِّ وَالنَّهْيِ وَأَصَالَةِ الرَّأْيِ.

فَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْكِتَابِ. وَكَانُوا يَقُولُونَ مَرَّةً: هُوَ سِحْرٌ، وَمَرَّةً: هُوَ شِعْرٌ، وَمَرَّةً: هُوَ قَوْلُ الْكَهَنَةِ، وَمَرَّةً: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. وَلَمْ يَخْجِ اللَّهُ عَنْهُمْ الْإِعْتِرَاضَ عَلَى الْأَحَادِيثِ وَدَعْوَى التَّنَاقُضِ وَالْإِخْتِلَافِ فِيهَا، وَحُكْيَ عَنْهُمْ، لِأَجْلِ ذَلِكَ الْقَدْحِ فِي خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَهُمْ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَاتَّبَعُوهُمْ بِالْحَدْسِ قَالُوا مَا شَأْنُ، أَوْ جَرَوْا فِي الطَّعْنِ عَلَى الْحَدِيثِ جَرِي مَنْ لَا يَرَى عَلَيْهِ مُحْتَسِبًا فِي الدُّنْيَا وَلَا مُحَاسِبًا فِي الْآخِرَةِ.

وَقَدْ بَسَطَ الْكَلَامَ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَالْجَوَابِ عَمَّا اعْتَرَضُوا فِيهِ أَبُو  
مُحَمَّدٍ بْنُ قُتَيْبَةَ فِي كِتَابَيْنِ صَنَفَهُمَا لِهَذَا الْمَعْنَى، وَهُمَا مِنْ مَحَاسِنِ كُتُبِهِ  
رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَلَمْ أُرِدْ قَصَّ تِلْكَ الْإِعْتِرَاضَاتِ تَعْزِيزًا لِلْمُعْتَرِضِ فِيهِ، لَمْ أَعْنِ  
بِرَدِّهَا لِأَنَّ غَيْرِي - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - قَدْ تَجَرَّدَ لَهُ، وَلَكِنْ أَرَدْتُ  
بِالْحِكَايَةِ عَنْهُمْ عَلَى الْجُمْلَةِ بَيَانَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «تُجَارَى بِهِمْ تِلْكَ  
الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ» وَقَبْلُ وَبَعْدُ فَأَهْلُ الْأَهْوَاءِ إِذَا  
اسْتَحْكَمَتْ فِيهِمْ أَهْوَاؤُهُمْ لَمْ يُبَالُوا بِشَيْءٍ، وَلَمْ يُعِدُّوا خِلَافَ  
أَنْظَارِهِمْ شَيْئًا، وَلَا رَاجِعُوا عُقُولَهُمْ مُرَاجَعَةً مَنْ يَتَّهِمُ نَفْسَهُ  
وَيَتَوَقَّفُ فِي مَوَارِدِ الْإِشْكَالِ (وَهُوَ شَأْنُ الْمُعْتَبِرِينَ مِنْ أَهْلِ  
الْعُقُولِ) وَهَؤُلَاءِ صَنَفٌ مِنْ أَصْنَافٍ مَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ، وَلَمْ يَعْبَأْ بِعَدْلِ  
الْعَاذِلِ فِيهِ، ثُمَّ هُنَاكَ أَصْنَافٌ أُخَرُ تَجْمَعُهُمْ مَعَ هَؤُلَاءِ إِشْرَابُ  
الْهُوَى فِي قُلُوبِهِمْ، حَتَّى لَا يُبَالُوا بِغَيْرِ مَا هُوَ عَلَيْهِ.

فَإِذَا تَقَرَّرَ مَعْنَى الرِّوَايَةِ بِالتَّمْثِيلِ، صِرْنَا مِنْهُ إِلَى مَعْنَى آخَرٍ،  
وَهِيَ قَوْلُهُ تَتَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ فِيهِ الْإِشَارَةُ بِتِلْكَ فَلَا تَكُونُ  
إِشَارَةً إِلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ وَلَا مُحَالٍ بِهَا.

المُسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ عَشْرَةَ: إِنَّ قَوْلَهُ: «تَتَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ» فِيهِ الْإِشَارَةُ بِـ «تِلْكَ» فَلَا تَكُونُ إِشَارَةً إِلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ، وَلَا مُحَالًا بِهَا عَلَى غَيْرِ مَعْلُومٍ، بَلْ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُتَقَدِّمٍ تَرْجِعُ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ إِلَّا الْأَحْوَالُ الَّتِي كَانَتْ السَّبَبُ فِي الْإِفْتِرَاقِ، فَجَاءَتْ الزِّيَادَةُ فِي الْحَدِيثِ مُبَيِّنَةً أَنَّهَا الْأَهْوَاءُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: «تَتَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ» فَذَلَّ عَلَى أَنَّ كُلَّ خَارِجٍ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ وَأَصْحَابُهُ إِنَّمَا خَرَجَ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى عَنِ الشَّرْعِ وَقَدْ مَرَّ بَيَانُ هَذَا قَبْلَ فَلَا نُعِيدُهُ.

مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ عَلَى وَصْفِ كَذَا»، الْمُسْأَلَةُ الْعِشْرُونَ: أَنَّ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ» عَلَى وَصْفِ كَذَا، يَحْتَمِلُ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا: مَنْ يَجْرِي فِيهِ هَوَاهُ مَجْرَى الْكَلْبِ بِصَاحِبِهِ فَلَا يَرْجِعُ عَنْهُ. وَالثَّانِي: مَنْ يَكُونُ عِنْدَ دُخُولِهِ فِي الْبِدْعَةِ مُشْرَبَ الْقَلْبِ بِهَا.

إِنَّ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَأَنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ» عَلَى وَصْفِ كَذَا، يَحْتَمِلُ أَمْرَيْنِ:

**أَحَدُهُمَا:** أَنْ يُرِيدَ أَنْ كُلَّ مَنْ دَخَلَ مِنْ أُمَّتِهِ فِي هَوَى مِنْ تِلْكَ الْأَهْوَاءِ وَرَأَاهَا وَذَهَبَ إِلَيْهَا، فَإِنَّ هَوَاهُ يَجْرِي فِيهِ مَجْرَى الْكَلْبِ بِصَاحِبِهِ فَلَا يَرْجِعُ أَبَدًا عَنْ هَوَاهُ وَلَا يَتُوبُ مِنْ بَدْعَتِهِ.

**وَالثَّانِي:** أَنْ يُرِيدَ أَنْ أُمَّتُهُ مَنْ يَكُونُ عِنْدَ دُخُولِهِ فِي الْبِدْعَةِ مُشْرَبَ الْقَلْبِ بِهَا فَلَا يُمَكِّنُهُ التَّوْبَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ، فَيُمَكِّنُهُ التَّوْبَةُ مِنْهَا وَالرُّجُوعُ عَنْهَا.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الْأَوَّلِ هُوَ النَّقْلُ الْمُقْتَضِي الْحَجَرَ لِلتَّوْبَةِ عَنْ صَاحِبِ الْبِدْعَةِ عَلَى الْعُمُومِ، كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ حَتَّى يَعُودَ السَّهْمُ عَلَى فُوقِهِ» وَقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ حَجَرَ التَّوْبَةِ عَنْ صَاحِبِ الْبِدْعَةِ»، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَيَشْهَدُ لَهُ الْوَاقِعُ، فَإِنَّهُ قَلَّمَا تَجَدَّدَ صَاحِبُ بَدْعَةٍ ارْتَضَاهَا لِنَفْسِهِ يَخْرُجَ عَنْهَا أَوْ يَتُوبُ مِنْهَا، بَلْ هُوَ يَزْدَادُ بَضَلًا لَتِلْكَ بِصِيرَةً.

رُويَ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ قَالَ: مَثَلُ الَّذِي يَنْظُرُ فِي الرَّأْيِ ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهُ مَثَلُ الْمَجْنُونِ الَّذِي عُولِجَ حَتَّى بَرِيَ، فَأَعْقَلَ مَا يَكُونُ قَدْ هَاجَ. وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الثَّانِي أَنَّ مَا تَقَدَّمَ مِنَ النَّقْلِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَا تَوْبَةَ لَهُ أَصْلًا، لِأَنَّ الْعَقْلَ يُجَوِّزُ ذَلِكَ، وَالشَّرْعَ إِنْ يَشَأْ عَلَى مَا ظَاهَرَهُ الْعُمُومُ فَعُمُومُهُ إِنَّمَا يُعْتَبَرُ عَادِيًّا، وَالْعَادَةُ إِنَّمَا تَقْتَضِي فِي



الْعُمُومِ الْكَثَرِيَّةِ، لَا نَحْتَاجُ الشُّمُولَ الَّذِي يَحْزِمُ بِهِ الْعَقْلُ إِلَّا بِحُكْمِ الْإِتِّفَاقِ، وَهَذَا مُبَيَّنٌّ فِي الْأُصُولِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّا وَجَدْنَا مَنْ كَانَ عَامِلًا بِيَدَعٍ ثُمَّ تَابَ مِنْهَا وَرَاجَعَ نَفْسَهُ بِالرُّجُوعِ عَنْهَا، كَمَا رَجَعَ مِنَ الْخَوَارِجِ مَنْ رَجَعَ حِينَ نَظَرَهُمْ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، وَكَمَا رَجَعَ الْمُهْتَدِي وَالْوَائِقُ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ كَانَ قَدْ خَرَجَ عَنِ السُّنَّةِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا، وَإِذَا جُعِلَ تَخْصِيصٌ بِفَرْدٍ لَمْ يَبْقَ اللَّفْظُ عَامًّا وَحَصَلَ الْإِنْقِسَامُ.

وَهَذَا الثَّانِي هُوَ الظَّاهِرُ، لِأَنَّ الْحَدِيثَ أَعْطَى أَوَّلَهُ أَنَّ الْأُمَّةَ تَفْتَرِقُ ذَلِكَ الْإِفْتِرَاقَ مِنْ غَيْرِ إِشْعَارٍ بِإِشْرَابٍ أَوْ عَدَمِهِ، ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ فِي أُمَّتِهِ الْمُفْتَرِقِينَ عَنِ الْجَمَاعَةِ مَنْ يُشْرَبُ تِلْكَ الْأَهْوَاءَ، فَدَلَّ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ لَا يُشْرَبُهَا، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِهَا.

وَيَبْعُدُ أَنْ يُرِيدَ أَنَّ فِي مُطْلَقِ الْأُمَّةِ مَنْ يُشْرَبُ تِلْكَ الْأَهْوَاءَ، إِذْ كَانَ يَكُونُ فِي الْكَلَامِ نَوْعٌ مِنَ التَّدَاخُلِ الَّذِي لَا فَايِدَةَ فِيهِ، فَإِذَا بَيَّنَّ أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ يُخْرَجُ فِي الْأُمَّةِ الْمُفْتَرِقَةِ بِسَبَبِ الْهُوَى مَنْ يَتَجَارَى بِهِ ذَلِكَ الْهُوَى اسْتِقَامَ الْكَلَامُ وَاتَّسَقَ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يُتَصَوَّرُ الْإِنْقِسَامُ.

وَذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ فِي الْفِرْقَةِ مَنْ يَتَجَارَى بِهِ الْهُوَى كَتَجَارِي الْكَلْبِ،  
وَمَنْ لَا يَتَجَارَى بِهِ ذَلِكَ الْمَقْدَارُ، لِأَنَّهُ يَصَحُّ أَنْ يَخْتَلِفَ التَّجَارِي،  
فَمِنْهُ مَا يَكُونُ فِي الْغَايَةِ حَتَّى يُخْرِجَ إِلَى الْكُفْرِ أَوْ يَكَادُ، وَمِنْهُ مَا لَا  
يَكُونُ كَذَلِكَ. اهـ

والتحقيق في هذه النصوص وما جاء في معناها: أنها محتملة  
لمعنيين المعنى الأول: أن أهل البدع لا يوفقون للتوبة ولا ييسرون  
لها فلا تقع منهم أصلاً إلا أن يشاء الله وهذا المعنى صحيح بلا  
ريب وقد دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة  
وواقع حال أهل البدعة.

أما أدلة الكتاب فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ  
قُلُوبَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٥﴾ [الصف] وقال ﴿فِي  
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ [البقرة: ١٠] وقال ﴿وَنَقَلْبُ  
أَفْتَدَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ۖ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ  
يَعْمَهُونَ ١١﴾ [الأنعام] وقال ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا  
بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ ۗ



جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ [النساء] وقال ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥] فقد دلت هذه الآيات على عدم توفيق أهل البدع للتوبة من بدعهم.

قال شيخ الإسلام رحمته الله كما في «مجموع الفتاوى» (٩/١٠):  
 وَلِهَذَا قَالَ أَيْمَةُ الْإِسْلَامِ كُفُيَا نَ الثَّوْرِيَّ وَغَيْرِهِ إِنَّ الْبِدْعَةَ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمُعْصِيَةِ لِأَنَّ الْبِدْعَةَ لَا يُتَابُ مِنْهَا وَالْمُعْصِيَةُ يُتَابُ مِنْهَا. وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ إِنَّ الْبِدْعَةَ لَا يُتَابُ مِنْهَا: أَنَّ الْمُتَبَدِّعَ الَّذِي يَتَّخِذُ دِينًا لَمْ يُشْرَعْهُ اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ قَدْ زَيَّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَأَهُ حَسَنًا فَهُوَ لَا يُتُوبُ مَا دَامَ يَرَاهُ حَسَنًا لِأَنَّ أَوَّلَ التَّوْبَةِ الْعِلْمُ بِأَنَّ فِعْلَهُ سَيِّئٌ لِيُتُوبَ مِنْهُ. أَوْ بِأَنَّهُ تَرَكَ حَسَنًا مَأْمُورًا بِهِ أَمَرَ إِيحَابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ لِيُتُوبَ وَيَفْعَلَهُ. فَمَا دَامَ يَرَى فِعْلَهُ حَسَنًا وَهُوَ سَيِّئٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَإِنَّهُ لَا يُتُوبُ. وَلَكِنَّ التَّوْبَةَ مِنْهُ مُمَكِّنَةٌ وَوَاقِعَةٌ بِأَنَّ يَهْدِيَهُ اللَّهُ وَيُرْشِدُهُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ كَمَا هَدَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ هَدَى مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَطَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالضَّلَالِ. اهـ

وقال **رحمته الله** (٦٨٤/١١)، بعد أن ذكر اثر سفيان المتقدم: وَهَذَا مَعْنَى مَا رُوِيَ عَنْ طَائِفَةٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ حَجَرَ التَّوْبَةَ عَلَى كُلِّ صَاحِبٍ بِدْعَةٍ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَتُوبُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ يَحْسَبُ أَنَّهُ عَلَى هُدًى وَلَوْ تَابَ لَتَابَ عَلَيْهِ كَمَا يَتُوبُ عَلَى الْكَافِرِ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَا يَقْبَلُ تَوْبَةُ مُبْتَدِعٍ مُطْلَقًا فَقَدْ غَلِطَ غَلْطًا مُنْكَرًا. وَمَنْ قَالَ: مَا أَذِنَ اللَّهُ لِصَاحِبٍ بِدْعَةٍ فِي تَوْبَةٍ. فَمَعْنَاهُ مَا دَامَ مُبْتَدِعًا يَرَاهَا حَسَنَةً لَا يَتُوبُ مِنْهَا فَأَمَّا إِذَا أَرَاهُ اللَّهُ أَنَّهَا قَبِيحَةٌ فَإِنَّهُ يَتُوبُ مِنْهَا كَمَا يَرَى الْكَافِرُ أَنَّهُ عَلَى ضَلَالٍ؛ وَإِلَّا فَمَعْلُومٌ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ كَانَ عَلَى بِدْعَةٍ تَبَيَّنَ لَهُ ضَلَالُهَا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْهَا. وَهَؤُلَاءِ لَا يُخَصِّصُهُمْ إِلَّا اللَّهُ. اهـ

قال ابن القيم **رحمته الله** في «بدائع الفوائد» (٤/٤٨): قال أبو الفرج الهمداني: سمعت المروزي، يقول: سئل أحمد عما ورد عن النبي **ﷺ** «إِنَّ اللَّهَ اخْتَجَزَ التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبٍ بِدْعَةٍ حَتَّى يَدْعَ بِدْعَتَهُ»، أيش معناها، فقال أحمد: لا يوفق ولا ييسر صاحب البدعة لتوبة. اهـ





ومع ذلك فالله ﷻ يتوب على من تاب وجمع شروط التوبة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٥٣﴾ [الزمر] ويقول ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤] وقال ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٣٩﴾ [المائدة] وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» أخرجاه في «الصحيحين» (٢٥).

وبهذا نكون قد عرجنا على ما قرره العلماء من شرائط التوبة مدعماً بأدلته من الكتاب والسنة الصحيحة كي تكون توبة التائب توبة نصوحة أما التلاعب بالتوبة فهذا أمر مرفوض وعمل مدعي التوبة مردود.

## حاجة المسلم إلى ملازمة الاستغفار:

قال ابن تيمية رحمته الله في «التدمرية»: «وليعلم العبد أنه مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحظور والصبر على المقدور كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقال في قصة يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٠) [يوسف] فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَسَيِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ (٥٥) [غافر] فأمره مع الاستغفار بالصبر فإن العباد لا بد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» وقد ذكر الله ﷻ عن آدم أبي البشر أنه استغفر ربه وتاب إليه فاجتباها ربه وتاب عليه وهداه وعن إبليس أبي الجن أنه أصر متعلقا بالقدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب فتاب وندم فقد أشبه أباه ومن أسبه أباه فما ظلم.



ولهذا قرن الله سبحانه وتعالى بين الاستغفار والتوحيد في غير آية كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

وقوله: ﴿فَأَسْتَغْفِرُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُواهُ﴾ [فصلت: ٦] وجماع ذلك أنه لا بد في الأمر من أصليين ولا بد له في القدر من أصليين ففي الأمر عليه الاجتهاد في الامتثال علما وعملا فلا يزال يجتهد في العلم بما أمر الله به والعمل بذلك ثم عليه أن يستغفر ويتوب من تفريطه في المأمور وتعديه للحدود ولهذا كان من المشروع أن تختتم جميع الأعمال بالاستغفار فكان النبي ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقد قال الله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ ﴿١٧﴾ [آل عمران] فقاموا الليل ثم ختموا بالاستغفار، وآخر سورة أنزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ [النصر]. انتهى

## الحاجة إلى التوبة المطلقة :

ذنوب العبد ومخالفاته كثيرة وقد لا يتفطن لبعضها فالمرح من ذلك تعاهد نفسه بالتوبة المطلقة من جميع ما يقع فيه وفيما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدل على ذلك ففي البخاري (٦٣٨٩) ومسلم (٢٧١٩) عَنِ ابْنِ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمَقْدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (٣٢٨/١٠) - (٣٣٠): «فَمَنْ تَابَ تَوْبَةً عَامَّةً كَانَتْ هَذِهِ التَّوْبَةُ مُقْتَضِيَةً لِعُفْرِانِ الذُّنُوبِ كُلِّهَا وَإِنْ لَمْ يَسْتَحْضِرْ أَعْيَانَ الذُّنُوبِ إِلَّا أَنْ يُعَارِضَ هَذَا الْعَامَّ مُعَارِضَ يُوجِبُ التَّخْصِصَ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ الذُّنُوبِ لَوْ اسْتَحْضَرَهُ لَمْ يَتَبَّ مِنْهُ؛ لِقُوَّةِ إِرَادَتِهِ إِيَّاهُ أَوْ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ حَسَنٌ



لَيْسَ بِقَبِيحٍ فَمَا كَانَ لَوْ اسْتَحْضَرَهُ لَمْ يَتُبْ مِنْهُ لَمْ يَدْخُلْ فِي التَّوْبَةِ وَأَمَّا مَا كَانَ لَوْ حَضَرَ بَعِيْنِهِ لَكَانَ مِمَّا يَتُوبُ مِنْهُ فَإِنَّ التَّوْبَةَ الْعَامَّةَ شَامِلَتْهُ.

**وَأَمَّا التَّوْبَةُ الْمُطْلَقَةُ:** وَهِيَ أَنْ يَتُوبَ تَوْبَةً مُجْمَلَةً وَلَا تُسْتَلْزَمُ التَّوْبَةُ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ فَهَذِهِ لَا تُوجِبُ دُخُولَ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الذُّنُوبِ فِيهَا وَلَا تَمْنَعُ دُخُولَهُ كَاللَّفْظِ الْمُطْلَقِ؛ لَكِنَّ هَذِهِ تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِغُفْرَانِ الْمُعَيَّنِ. كَمَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِغُفْرَانِ الْجَمِيعِ؛ بِخِلَافِ الْعَامَّةِ فَإِنَّهَا مُقْتَضِيَةٌ لِلْغُفْرَانِ الْعَامِّ كَمَا تَنَاوَلَتْ الذُّنُوبَ تَنَاوُلًا عَامًّا. وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَسْتَحْضِرُ عِنْدَ التَّوْبَةِ إِلَّا بَعْضَ الْمُتَصِفَاتِ بِالْفَاحِشَةِ أَوْ مُقَدِّمَاتِهَا أَوْ بَعْضَ الظُّلْمِ بِاللِّسَانِ أَوْ الْيَدِ وَقَدْ يَكُونُ مَا تَرَكَهُ مِنَ الْمَأْمُورِ الَّذِي يَجِبُ لِلَّهِ عَلَيْهِ فِي بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ وَحَقَائِقِهِ أَعْظَمَ ضَرَرًا عَلَيْهِ مِمَّا فَعَلَهُ مِنْ بَعْضِ الْفَوَاحِشِ فَإِنَّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ الَّتِي بِهَا يَصِيرُ الْعَبْدُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا أَعْظَمَ نَفْعًا مِنْ نَفْعِ تَرْكِ بَعْضِ الذُّنُوبِ الظَّاهِرَةِ كَحُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا أَعْظَمُ الْحَسَنَاتِ الْفِعْلِيَّةِ حَتَّى ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ رَجُلٌ يُدْعَى حِمَارًا وَكَانَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ وَكَانَ كُلَّمَا أُتِيَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَدَهُ الْحَدَّ فَلَمَّا كَثُرَ ذَلِكَ مِنْهُ أُتِيَ بِهِ مَرَّةً فَأَمَرَ بِجَلْدِهِ فَلَعَنَهُ رَجُلٌ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا تَلْعَنُهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». فَنَهَى عَنْ لَعْنِهِ مَعَ إِصْرَارِهِ عَلَى الشَّرْبِ لِكُونِهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَعَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ فِي الْخَمْرِ عَشْرَةً: «لَعَنَ الْخَمْرَ وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمُحْمُولَةَ إِلَيْهِ وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَآكِلَ ثَمَنِهَا». وَلَكِنَّ لَعْنَ الْمُطْلَقِ لَا يَسْتَلْزِمُ لَعْنَ الْمُعَيَّنِ الَّذِي قَامَ بِهِ مَا يَمْنَعُ حُقُوقَ اللَّعْنَةِ لَهُ.

وَكَذَلِكَ التَّكْفِيرُ الْمُطْلَقُ وَالْوَعِيدُ الْمُطْلَقُ. وَهَذَا كَانَ الْوَعِيدُ الْمُطْلَقُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَشْرُوطًا بِثُبُوتِ شُرُوطٍ وَانْتِفَاءِ مَوَانِعَ فَلَا يَلْحَقُ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَلْحَقُ مَنْ لَهُ حَسَنَاتٌ تَمْحُو سَيِّئَاتِهِ وَلَا يَلْحَقُ الْمُشْفُوعُ لَهُ وَالْمَغْفُورُ لَهُ؛ فَإِنَّ الذُّنُوبَ تَزُولُ عُقُوبَتُهَا الَّتِي هِيَ جَهَنَّمُ بِأَسْبَابِ التَّوْبَةِ وَالْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ وَالْمَصَائِبِ الْمُكَفِّرَةِ - لَكِنَّهَا مِنْ عُقُوبَاتِ الدُّنْيَا - وَكَذَلِكَ



مَا يَحْصُلُ فِي الْبَرْزَخِ مِنَ الشَّدَّةِ، وَكَذَلِكَ مَا يَحْصُلُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، وَتَزُولُ أَيْضًا بِدُعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ: كَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَشَفَاعَةِ الشَّفِيعِ الْمُطَاعِ كَمَنْ يَشْفَعُ فِيهِ سَيِّدُ الشُّفَعَاءِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا. وَحِينَئِذٍ فَأَيُّ ذَنْبٍ تَابَ مِنْهُ ارْتَفَعَ مُوجِبُهُ وَمَا لَمْ يَتُبْ مِنْهُ فَلَهُ حُكْمُ الذُّنُوبِ الَّتِي لَمْ يَتُبْ مِنْهَا فَالشَّدَّةُ إِذَا حَصَلَتْ بِذُنُوبٍ وَتَابَ مِنْ بَعْضِهَا خَفَّفَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَا تَابَ مِنْهُ بِخِلَافِ مَا لَمْ يَتُبْ مِنْهُ؛ بِخِلَافِ صَاحِبِ التَّوْبَةِ الْعَامَّةِ. وَالنَّاسُ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ لَا يَتُوبُونَ تَوْبَةً عَامَّةً مَعَ حَاجَتِهِمْ إِلَى ذَلِكَ فَإِنَّ التَّوْبَةَ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ فِي كُلِّ حَالٍ؛ لِأَنَّهُ دَائِمًا يَظْهَرُ لَهُ مَا فَرَّطَ فِيهِ مِنْ تَرْكِ مَأْمُورٍ أَوْ مَا اعْتَدَى فِيهِ مِنْ فِعْلٍ مُحْظُورٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتُوبَ دَائِمًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ

### من فضائل التوبة تبديل السيئات حسنات بالتوبة:

قال ابن مفلح **رحمته الله** في «الآداب الشرعية» (١/١٢٢):

تَبْدِيلُ السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ بِالتَّوْبَةِ هَلْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا فَقَطْ بِالطَّاعَاتِ أَمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ لِلْمُفَسِّرِينَ قَوْلَانِ، وَالثَّانِي

اخْتَارَهُ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ لظَاهِرِ آيَةِ الْفُرْقَانِ وَلِحَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ «فِي الرَّجُلِ الَّذِي تُعْرَضُ عَلَيْهِ صَغَارُ ذُنُوبِهِ وَتُبَدَّلُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَهَذَا الرَّجُلُ الْمُرَادُ بِخُرُوجِهِ مِنَ النَّارِ الْوُرُودُ الْعَامُّ.

قَالَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ: التَّائِبُ عَمَلُهُ أَعْظَمُ مِنْ عَمَلِ غَيْرِهِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْلُ تِلْكَ السَّيِّئَاتِ فَإِنْ كَانَ قَدْ عَمِلَ مَكَانَ سَيِّئَاتٍ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ فَهَذَا دَرَجَتُهُ بِحَسَبِ حَسَنَاتِهِ فَقَدْ يَكُونُ أَرْفَعَ مِنَ التَّائِبِ إِنْ كَانَتْ حَسَنَاتُهُ أَرْفَعَ، وَإِنْ كَانَ قَدْ عَمِلَ سَيِّئَاتٍ وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا فَهَذَا نَاقِصٌ، وَإِنْ كَانَ مَشْغُولًا بِمَا لَا ثَوَابَ فِيهِ وَلَا عِقَابَ فَهَذَا التَّائِبُ الَّذِي اجْتَهَدَ فِي التَّوْبَةِ، وَالتَّبْدِيلُ لَهُ مِنَ الْعَمَلِ وَالْمُجَاهَدَةُ مَا لَيْسَ لَذَلِكَ الْبَطَالُ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ تَقْدِيمَ السَّيِّئَاتِ وَلَوْ كَانَتْ كُفْرًا إِذَا تَعَقَّبَهَا التَّوْبَةُ الَّتِي يُبَدِّلُ اللَّهُ فِيهَا السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ السَّيِّئَاتُ نَقْصًا بَلْ كَمَالًا، وَقَدْ سَبَقَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ قَرِيبًا. اهـ

وقال **رحمته الله** (١/٩١-٩٢): وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدَلُ

اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ﴾ [الفرقان].





قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: اخْتَلَفُوا فِي هَذَا التَّبْدِيلِ فِي زَمَانٍ كَوْنِهِ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ يُبَدَّلُ اللَّهُ شُرَكَهُمْ إِيْمَانًا، وَقَتْلَهُمْ إِمْسَاكًا، وَزِنَاهُمْ إِحْصَانًا قَالَ: وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا، وَمِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ.

(وَالثَّانِي) أَنَّ ذَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ قَالَهُ سَلْمَانٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ.

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ بْنِ مِهْرَانَ يُبَدَّلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَيِّئَاتِ الْمُؤْمِنِ إِذَا غَفَرَهَا لَهُ حَسَنَاتٍ حَتَّى إِنَّ الْعَبْدَ يَتَمَنَّي أَنْ تَكُونَ سَيِّئَاتُهُ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ. وَعَنْ الْحَسَنِ كَالْقَوْلَيْنِ وَرَوِيَ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ: وَدَّ قَوْمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا اسْتَكْثَرُوا يَعْنِي: الذُّنُوبَ فَقِيلَ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان].

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رحمته الله: وَيُؤَكِّدُ هَذَا الْقَوْلَ حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا

الْجَنَّةَ وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ فَيَقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ: نَعَمْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ فَيَقَالُ لَهُ: إِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَهُنَا» فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ.

فَهَذَا الْحَدِيثُ فِي رَجُلٍ خَاصٍّ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرٌ لِلتَّوْبَةِ فَيَجُوزُ أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ هَذَا بِفَضْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا بِسَبَبٍ مِنْهُ بِتَوْبَتِهِ وَلَا غَيْرِهَا كَمَا يُنْشِئُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَنَّةِ خَلْقًا بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ فَلَا حُجَّةَ فِيهِ لِهَذَا الْقَوْلِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ. اهـ

### علامات قبول التوبة الصحيحة :

قال ابن القيم رحمته الله في «مدارج السالكين» (١/٢٠٣): فَالتَّوْبَةُ الْمُقْبُولَةُ الصَّحِيحَةُ لَهَا عِلَامَاتٌ. مِنْهَا: أَنْ يَكُونَ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلَهَا. وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَا يَزَالُ الْخَوْفُ مُصَاحِبًا لَهُ لَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ



طَرَفَةَ عَيْنٍ، فَخَوْفُهُ مُسْتَمِرٌّ إِلَى أَنْ يَسْمَعَ قَوْلَ الرُّسُلِ لِقَبْضِ رُوحِهِ ﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ [فصلت] فَهَنَّاكَ يَزُولُ الْخَوْفُ. وَمِنْهَا: انْخِلَاعُ قَلْبِهِ، وَتَقَطُّعُهُ نَدَمًا وَخَوْفًا، وَهَذَا عَلَى قَدْرِ عِظَمِ الْجِنَايَةِ وَصِغَرِهَا، وَهَذَا تَأْوِيلُ ابْنِ عُيَيْنَةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لَا يَزَالُ بُعِثُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠] قَالَ: تَقَطُّعُهَا بِالتَّوْبَةِ، وَلَا رِيبَ أَنَّ الْخَوْفَ الشَّدِيدَ مِنَ الْعُقُوبَةِ الْعَظِيمَةِ يُوجِبُ انْصِدَاعَ الْقَلْبِ وَانْخِلَاعَهُ، وَهَذَا هُوَ تَقَطُّعُهُ، وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ، لِأَنَّهُ يَتَقَطَّعُ قَلْبُهُ حَسْرَةً عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ، وَخَوْفًا مِنْ سُوءِ عَاقِبَتِهِ، فَمَنْ لَمْ يَتَقَطَّعْ قَلْبُهُ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا فَرَطَ حَسْرَةً وَخَوْفًا، تَقَطَّعَ فِي الْآخِرَةِ إِذَا حَقَّتِ الْحَقَائِقُ، وَعَايَنَ ثَوَابَ الْمُطِيعِينَ، وَعِقَابَ الْعَاصِينَ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَقَطُّعِ الْقَلْبِ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ.

وَمِنْ مُوجِبَاتِ التَّوْبَةِ الصَّحِيحَةِ أَيْضًا: كَسْرَةُ خَاصَّةٍ تَحْصُلُ لِلْقَلْبِ لَا يُشَبِّهُهَا شَيْءٌ، وَلَا تَكُونُ لِغَيْرِ الْمَذْنِبِ، لَا تَحْصُلُ بِجُوعٍ،

وَلَا رِيَاضَةً، وَلَا حُبَّ مُجَرَّدٍ، وَإِنَّمَا هِيَ أَمْرٌ وَرَاءَ هَذَا كُلِّهِ، تَكْسِرُ  
الْقَلْبَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ كَسْرَةً تَامَةً، قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ،  
وَأَلْقَتْهُ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ طَرِيحًا ذَلِيلًا خَاشِعًا، كَحَالِ عَبْدٍ جَانٍ أَبَقِيَ مِنْ  
سَيِّدِهِ، فَأَخَذَ فَأُخْضِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُنْجِيهِ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَلَمْ  
يَجِدْ مِنْهُ بُدًّا وَلَا عَنْهُ غَنَاءً، وَلَا مِنْهُ مَهْرَبًا، وَعَلِمَ أَنَّ حَيَاتَهُ وَسَعَادَتَهُ  
وَفَلَاحَهُ وَنَجَاحَهُ فِي رِضَاهُ عَنْهُ، وَقَدْ عَلِمَ إِحَاطَةَ سَيِّدِهِ بِتَفَاصِيلِ  
جَنَائِيَاتِهِ، هَذَا مَعَ حُبِّهِ لِسَيِّدِهِ، وَشِدَّةِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَعِلْمِهِ بِضَعْفِهِ  
وَعَجْزِهِ وَقُوَّةِ سَيِّدِهِ، وَذُلِّهِ وَعِزِّ سَيِّدِهِ.

فَيَجْتَمِعُ مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ كَسْرَةٌ وَذِلَّةٌ وَخُضُوعٌ، مَا أَنْفَعَهَا  
لِلْعَبْدِ وَمَا أَجْدَى عَائِدَتِهَا عَلَيْهِ! وَمَا أَعْظَمَ جَبْرَهُ بِهَا، وَمَا أَقْرَبَهُ بِهَا  
مِنْ سَيِّدِهِ! فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى سَيِّدِهِ مِنْ هَذِهِ الْكَسْرَةِ، وَالْخُضُوعِ  
وَالْتَّذَلِّ، وَالْإِخْبَاتِ، وَالْإِنْطِرَاحِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالِاسْتِسْلَامِ لَهُ، فَلِلَّهِ  
مَا أَحَلَّى قَوْلَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ: أَسْأَلُكَ بِعِزِّكَ وَذُلِّي إِلَّا رَحْمَتِي،  
أَسْأَلُكَ بِقُوَّتِكَ وَضَعْفِي، وَبِغْنَاكَ عَنِّي وَفَقْرِي إِلَيْكَ، هَذِهِ نَاصِيَتِي  
الْكَاذِبَةُ الْخَاطِئَةُ بَيْنَ يَدَيْكَ، عَمِيدُكَ سِوَايَ كَثِيرٌ، وَلَيْسَ لِي سَيِّدٌ



سِوَاكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ  
الْمُسْكِينِ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْخَاضِعِ الدَّلِيلِ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ  
الْخَائِفِ الضَّرِيرِ، سُؤَالَ مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ، وَرَغِمَ لَكَ أَنْفُهُ،  
وَفَاضَتْ لَكَ عَيْنَاهُ، وَذَلَّ لَكَ قَلْبُهُ.

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤْمَلُهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أَحَازِرُهُ  
لَا يَجْزِي النَّاسَ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلَا يَهَيِّضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ  
فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ آثَارِ التَّوْبَةِ الْمُقْبُولَةِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ  
فَلْيَتَّهِمْ تَوْبَتَهُ وَلْيَرْجِعْ إِلَى تَصْحِيحِهَا، فَمَا أَصْعَبَ التَّوْبَةَ الصَّحِيحَةَ  
بِالْحَقِيقَةِ، وَمَا أَسْهَلَهَا بِاللِّسَانِ وَالِدَّعْوَى! وَمَا عَالَجَ الصَّادِقِ  
بِشَيْءٍ أَشَقَّ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْبَةِ الْخَالِصَةِ الصَّادِقَةِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ  
إِلَّا بِاللَّهِ. اهـ

سبحانك الله وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك  
وكانت المراجعة للطبعة الثانية في مكة المكرمة حرسها الله تعالى  
وسائر بلاد المسلمين في يوم الخميس الرابع والعشرون من شهر  
جمادى الثانية لعام ألف وأربع مئة وثمانية وثلاثون  
والحمد لله رب العالمين.





## فهرس الموضوعات

المقدمة .....	٣
ضرر الذنوب والمعاصي في الدنيا والأخرة .....	٩
تعريف التوبة إلى الله ﷻ: .....	١٧
حقيقة التوبة .....	١٨
فضل التوبة إلى الله ﷻ .....	٢٠
حكم التوبة إلى الله ﷻ .....	٢٣
جنس ما يتاب منه .....	٢٤
كيفية التوبة .....	٢٦
توبة العاجز عن الذنب .....	٢٧
مهمما عظم الذنب فمن يحول بينه وبين التوبة .....	٢٨
أسباب سقوط العقوبة عن المذنب .....	٢٩
الحذر من اليأس والأمن من الله عز وجل بعباده .....	٣٤
شروط التوبة .....	٣٩
مسألة هل يشترط التلفظ بالتوبة .....	٤١
أولاً: توبة العبد من الذنب الذي بينه وبين الله ﷻ .....	٤٢
ثانياً: توبة العبد في حقوق الأدميين .....	٥٣
ثالثاً: توبة الكافر .....	٦٠
مسألة هل يقطع بقبول التوبة .....	٦٣
مسألة توبة الكافر من المعاصي دون الكفر .....	٦٣



- مسألة توبة الكافر من الكفر دون المعاصي ..... ٦٤
- رابعاً: توبة المنافق ..... ٦٦
- القول في توبة الزنديق ..... ٨٢
- خامساً: توبة المبتدع ..... ٨٧
- القول في قبول توبة المبتدع من عدمها ..... ٩٢
- حاجة المسلم إلى ملازمة الإستغفار ..... ١٠٦
- الحاجة إلى التوبة المطلقة ..... ١٠٨
- من فضائل التوبة تبديل السيئات حسنات بالتوبة ..... ١١١
- علامات قبول التوبة الصحيحة ..... ١١٤
- فهرس الموضوعات ..... ١١٩